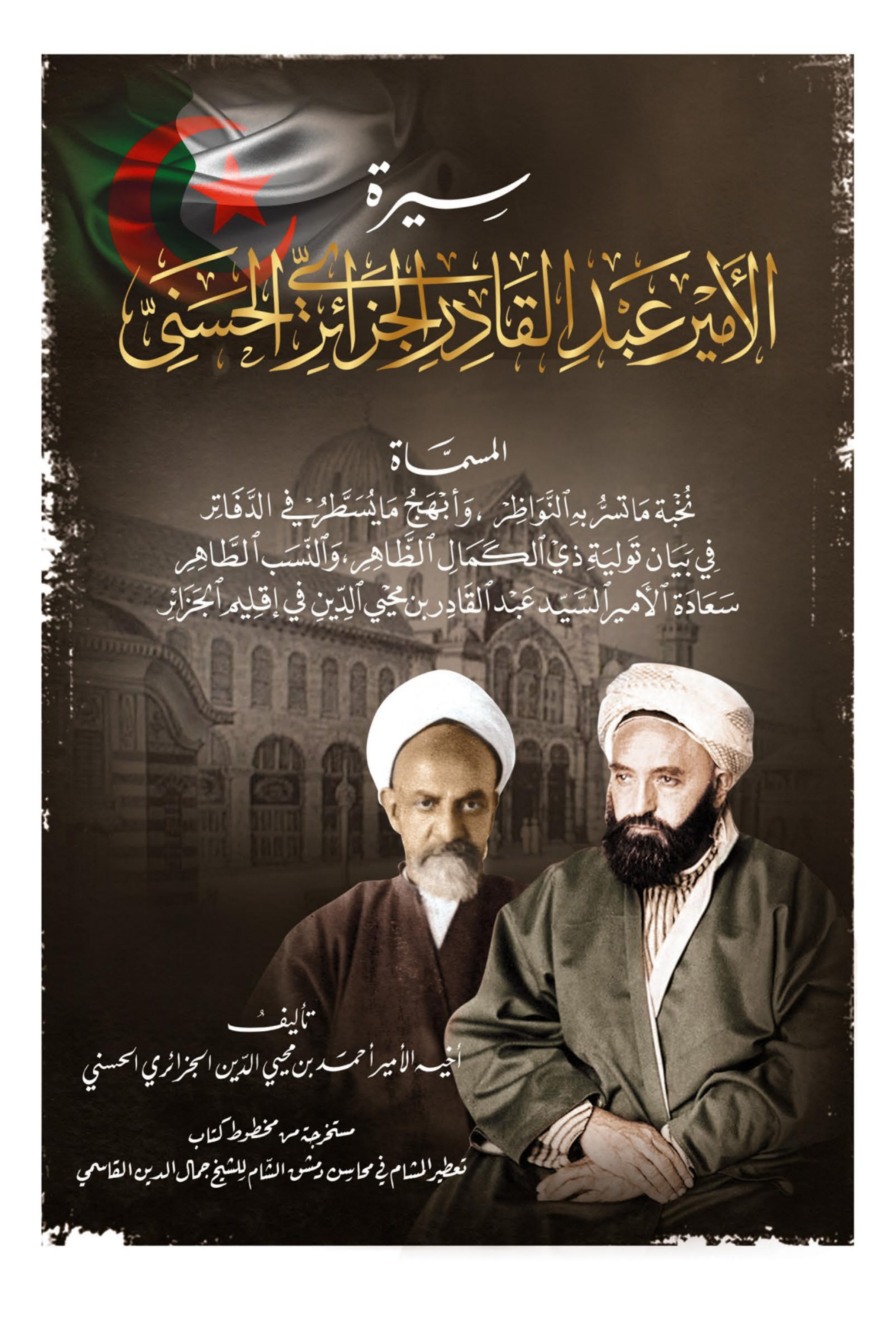


سيرة الأمير عبد القادر الجزائري الحسني

المسماة

نُخبة ما تسرُّ به النَّواظر، وأبهج ما يُسطَّر في الدفاتر
في بيان تولية ذي الكمال الظاهر، والنسب الطاهر
سعادة الأمير السيد عبد القادر بن محيي الدين في إقليم الجزائر

تأليف
أخيه الأمير أحمد بن محيي الدين الجزائري الحسني

مستخرجة من مخطوط كتاب
تعطير المشام في محاسن دمشق الشام للشيخ جمال الدين القاسمي

سيرة
الأمير عبد القادر الجزائري الحسني

المسمّاة

نُخبة ما تسرُّ به النواظر، وأبهجُ ما يُسطَّرُ في الدفاتر
في بيان تولية ذي الكمال الظاهر، والنسب الطاهر
سعادة الأمير السيّد عبد القادر بن محيي الدين في إقليم الجزائر

تأليف

أخيه الأمير أحمد بن محيي الدين الجزائري الحسني

مستخرجة من مخطوط كتاب

تعطير المشام في محاسن دمشق الشام للشيخ جمال الدين القاسمي

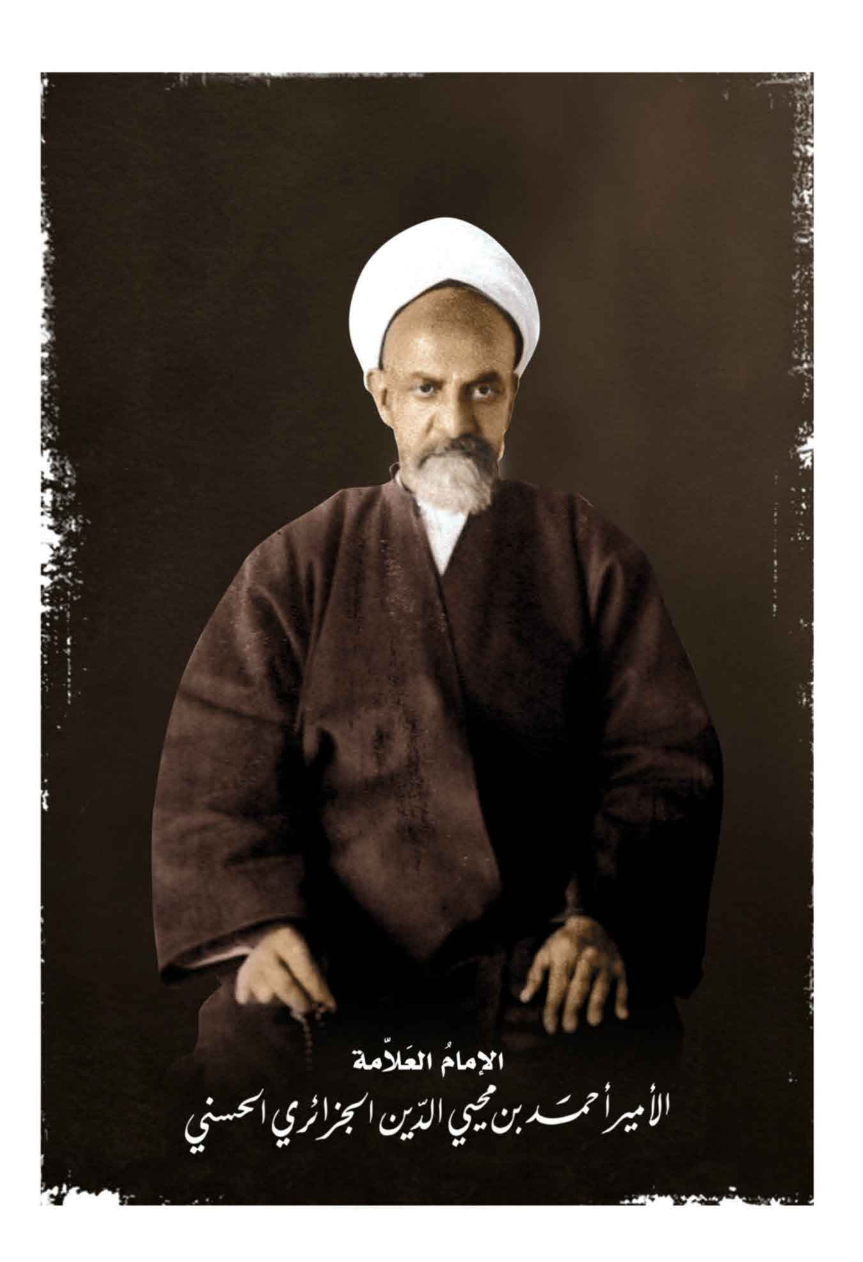


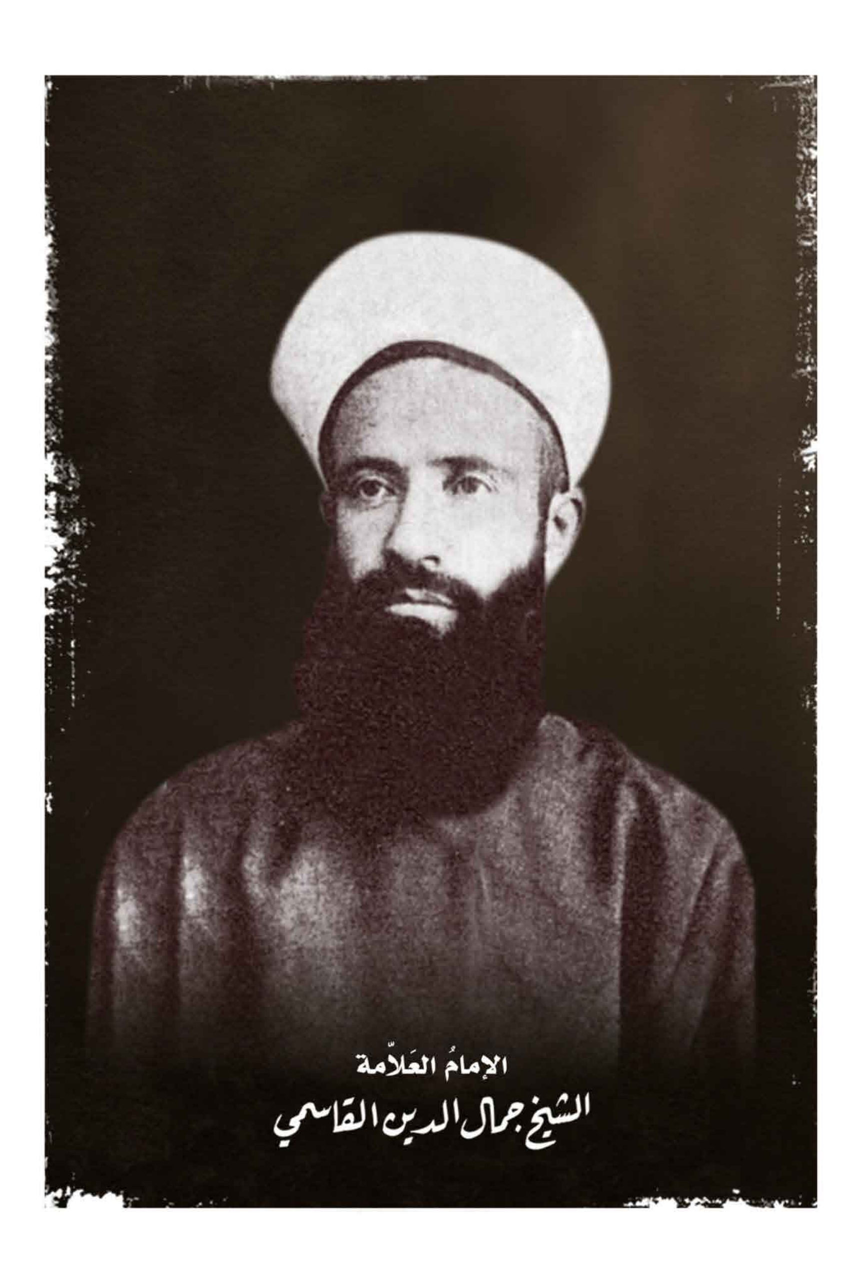


1442 هـ - 2020 م

إِهْدَاءٌ

إِلَى كُلِّ مُوَاطِنٍ جَزَائِرِيٍّ شَهْمٍ


الإمامُ العَلاّمة
الأمير أحمد بن محيي الدّين الجزائري الحسني


الإمامُ العَلّامة
الشيخ جمال الدين القاسمي

قبيلة العارف بالله عبد القادر الادريسي الحسني
الشهير بسيدي قادة

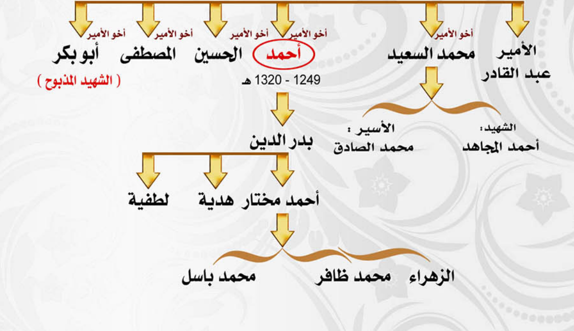
بسم الله الرحمن الرحيم
رحمت الله وبركاته عليكم
أهل البيت إنه حميد مجيد
بسم الله الرحمن الرحيم
قل لا أسألكم عليه أجرا
إلا المودة في القربى
بسم الله الرحمن الرحيم
إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا
صدق الله العلي العظيم
وبلغ رسوله الكريم

قال رسول الله ﷺ
أما بعد أيها الناس فإنما
أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي
فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما
كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب
الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله
ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي أذكركم
الله في أهل بيتي أذكركم الله في
أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي
رواه الإمام مسلم في كتاب
فضائل الصحابة

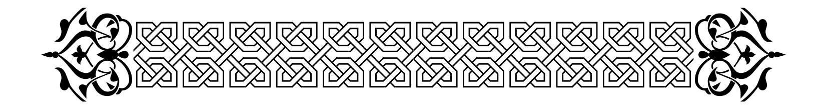










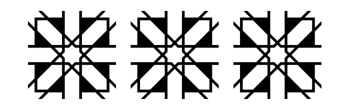


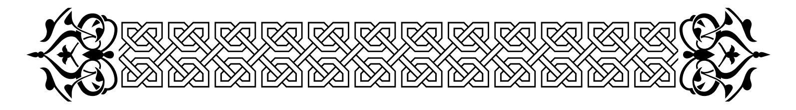
كلمة شكر

تشكر مؤسسة الأمير عبد القادر الوطنيّة كلّ مَنْ أسهم في إحياء هذا الأثر الغالي من آثار الأمير عبد القادر وبعثه إلى النَّور، وتخصُّ منهم:

- حَفَدَة الشيخ القاسمّي الذين أتاحوا لنا فرصة الحصول على قطعة مصوَّرة من أصل كتاب (تعطير المشام).
- الأميرة الزهراء بنت أحمد مختار حفيدة الأمير أحمد مؤلِّف النخبة، إذ أهدت المؤسسة مجموعة من مؤلَّفات جدِّها المكتوبة بخطِّه.
- الأستاذ المحقّق محمد أديب الجادر المعني بشؤون التراث العربيّ والنصوص القديمة، وقد بذلك لنا مصوَّرة عن مخطوطة (تعطير الشام).
- الدكتور فارس علّاوي المتخصّص في الفلسفة الذي قدّم قراءات في نصوص الرجلين.

- الأستاذ أحمد النّجّار -كليّة الدعوة الإسلاميّة-، لنهوضه بتنضيد النص وتصحيحه.
- الحفيد جعفر الحسنيّ الجزائري -كلية الحقوق-، لسعيه الدؤوب في إحياء تراث الأمير، وحرصه على متابعة إخراج النّصّ وبعثه إلى النور.
- الدكتور محمد قاسم مدرِّس النّحو والصرف في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق لتفضُّله بالتدقيق اللّغويّ والمراجعة العلميّة للنّصّ.





تقديم الكتاب

يســرُّ مؤسســة الأمــير عبــد القــادر الوطنيّــة في الجزائــر أَنْ تقــدِّم للسَّــادة القُــرَّاء ترجمــة الأمــير عبــد القــادر مِــن كتــاب (نُخبة ما تُسَــرُّ به النّواظر، وأبهج ما يُسَطَّر في الدفاتر).

وهــي ترجمــة مكثَّفــة مختصــرة عــن ســيرة الأمــير المجاهــد عبــد القــادر بــن محيــي الــدين الجزائــريّ، مودعــة في موســوعة (تعطــير المشــامّ في محاســن دمشــق الشّــام) للشــيخ جمــال الــدين القاسميّ، الذي كــان قــد طلــب إلى الأمــير أحمــد بــن محيــي الــدين الأخ الأصغر للأمير عبــد القــادر أَنْ يُحَــرِّرَ هــذه الترجمــة بــما عرفــه عن كثب عن أخيه الأمير عبد القادر.

وكــان أَنْ كتــب هــذه الترجمــة التــي نضــعها بــين أيــديكم لعلَّهــا تُلْقــي أضــواء جديــدة عــلى ســيرة هــذا الرجــل المجاهــد الأمير عبد القادر الذي مَلأَ ذِكْرُهُ الخافقَيْنِ.

وقــد نســخنا هــذه القطعــة مــن المخطوطــة التــي تشــبه أن تكــون موســوعة أو مدوَّنــة لتــاريخ دمشــق الشــام ورجالهــا في

القرن التاسع عشر، وفق قواعد الإملاء المعتمد الحديث، وضبطنا ما يحتاج إلى ضبطٍ بالشكل لتسهيل القراءة، وشرحنا بعض المفردات التي تحتاج في تقديرنا إلى شرح.

هذا وقد يسّرنا ما طلبه السَّادة المهتمّون بتاريخ الجزائر ورجالها من حبّ الاطلاع على نصّ ترجمة الأمير أحمد لأخيه الأمير عبد القادر، وهو نصٌّ عزيزٌ غير متاحٍ.

ننشر هذا الأثر الغالي الذي يمثّل صفحةً ناصعةً من تاريخ وطننا الحبيب، بغبطةٍ وسعادةٍ وطنيةٍ غامرةٍ، إذ هذا النشر التاريخي جزءٌ من رسالة مؤسّسة الأمير عبد القادر الوطنية.

وكان قد سبقنا إلى نشر هذه الترجمة الدكتور محمّد مطيع الحافظ؛ الذي استخرجها من موسوعة: (تعطير المشام في محاسن دمشق الشام)، لمؤلِّفها الشيخ العلّامة جمال الدّين القاسميّ (1866م/ 1914م) أبرز علماء دمشق في القرن التاسع عشر، وهو رجل موسوعيٌّ، مَذْهَبُهُ أصوليٌّ معتدلٌ، وله جملة من التصانيف المختلفة.

ومؤلَّف (نخبة ما تُسرُّ به النواظر، وأبهج ما يُسَطَّرُ في الدفاتر):
هو العلّامة المفتي أحمد بن محيي الدّين بن مصطفى الحسنيّ الجزائريّ (1249–1320هـ/ 1833–1902م) وُلد في القيطنة – معسكر، وتُوُفِّيَ والده قبل أَنْ يتمَّ سنته الأولى، عالمٌ في الفقه والتاريخ، تلقّى علومه على يد ثُلّة من علماء الجزائر، منهم: الشيخ محمد ابن عبد الله الخالدي الجزائريّ، وكان قد حفظ القرآن صبيّاً، وسمع من أخيه الأمير عبد القادر صحيحي البخاري ومسلم.

ثمّ لمّا استقرّ به المقام في دمشق أتمّ تحصيله، وأخذ عن جملة من العلماء منهم:

الشيخ محمّد عبد الله الخاني، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ قاسم حلاَّق، والشيخ يوسف الحسني، والعلاَّمة المجاهد مصطفى بن التّهاميّ إِمام المالكيّة في دمشق.

ولَمَّا أطلق الإمبراطور نابليون الثالث سراح الأمير عبد القادر من فرنسة إلى بورصة بكفالة السلطان الأشهب عبد المجيد خان، رُحِّلَ منها أيضاً الأمير أحمد مع إخوته إلى الجزائر لتشتيت شملهم.

يقول الأمير أحمد في كتابه النخبة:

(استحسن نابليون -الثالث- أن يفرّق بينه وبين إخوته، فرحّلهم من إِمبواز إلى الجزائر، وأسكنهم في مدينة بونة ليجعلهم كالرهائن، ويُبقيَهم فيها قَطْعاً لألسنة أرباب دولته، وتأميناً لهم، وتسكيناً لأفئدتهم كيلا يحصل لهم من الأمير أدنى مناكدةٍ، أو تشويش مع وجود إخوته تحت قبضتهم، وحسماً لما تعطيه أفكارهم من كون الأمير لا يصبر عن العودة إلى وطنه ومحل إمارته وعزه، وأنه بمجرد خروجه للبلاد الإسلامية يرجع إلى الجزائر، وكانت أفكاره هو غير أفكارهم).

ثمّ بعد ذلك طلبوا الرحيل إلى تونس لمجاورة علمائها وفضلائها، فرفضت فرنسة طلبهم خوفاً من التفاف الناس في تونس حولهم لعلمهم وفضلهم وجهادهم وأسبقيتهم في مقارعة الفرنسيين.

وقد رأى الفرنسيون ترحيلهم إلى دمشق، إبعاداً لهم عن شمال إفريقيا، وكان أن التحقوا بأخيهم الأمير عبد القادر سنة 1273هـ.

اشـتهر الأمـير أحمـد بعلمـه وفضـله في دمشـق، فانعقـدت له الدروس في جـامع العنَّـابي في حـي بـاب سريجـة الدمشـقيّ بـين العشـاءَيْنِ، وتحلَّـق النّـاس حولـه ينهلـون مـن علمـه الجـمّ، ولـه من المؤلفات:

1- (الجنـى المسـتطاب والزّبرجـد المـذاب) رسـالة في السـماع، وهـي رَدٌّ عـلى مـن ادّعـى أنَّ سـماع المعـازف يحـرِّك القلـب لربّ الأرباب.

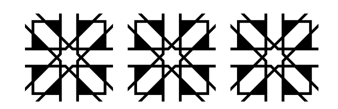
2- و(شرح عـلى الأبيـات التـي أوَّلهـا: فأثبـتَ في مسـتنقع الموت رجله).

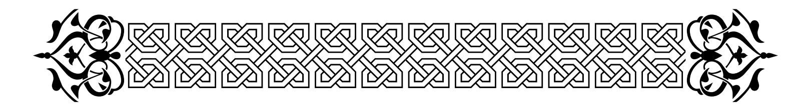
3- ورسـالة عـلى قـول الإمـام عـليّ رضي الله عنه: «العِلْـمُ نُقْطَـةٌ كثرهـا الجـاهلون»، عنوانهـا: (نثـر الـدر وبسـطه في بيـان كـون العلم نقطة).

4- (نخبـة مـا تُسَـرُّ بـه النـواظر وأبهـج مـا يُسَـطَّرُ في الـدفاتر). وهو كتاب موسـع في التـاريخ انتـزع منـه الشـيخ جمـال الـدين القاسـمي سـيرة الأمـير عبـد القـادر الجزائـري وأودعهـا في موسوعته: (تعطير المشام).

مراجع للاستزادة:

- ✓ حيلة البشر 1/ 304-305.
- ✓ منتخبات التواريخ لدمشق 2/ 704-705.
- ✓ أعيان دمشق 414-415.
- ✓ تعطير المشام 65-71.
- ✓ الأعلام الشرقية 2/ 72 و2/ 84 و4/ 177.
- ✓ الأعلام 1/ 255.





منهج العلامة المفتي المالكي الأمير أحمد فيما كتب

امتاز منهج الأمير أحمد في كتاباته بالنقد الموضوعيّ:

مِنْ ذلك: أَنَّه في عرضه سيرة الأمير عبد القادر انتقد مَوْقِفَهُ مِنْ والي تلمسان، الذي كان سبباً في سُقُوطِها، وكان يَرَى أَنَّ الأَوْلَى عَزْلُهُ لانفضاضِ النَّاس مِنْ حوله.

ومن ذلك:

عدم رضاه عن موقف الأمير عبد القادر من المفاوضات بينه وبين فرنسة في جزئية ترسيم الحدود المؤقّتة، الذي أدى إلى سلسلة حروب كان من نتائجها تعاظم البلاء والعذاب على الناس، والقضاء على الإمارة، وذلك بسبب إصرار الأمير على عدم تنازله عن الفراسخ العشرة التي طلبها الفرنسيون، وأصر على فرسخين أو ثلاثة حتى قال الأمير أحمد في ذلك: «ليته سمح لهم بعشرة فراسخ دَفْعاً لِمَا يمكنُ أَنْ يُلْحِقَه التوحُّشُ الفرنسي المحتلُّ بالبلاد».

ومن مزاياه في كتاباته أَنَّه لم يفقد الجرأة على نَقْدِ الحاكم المستبدّ الطّاغي، وقد هاجم الولاة العثمانيين على الجزائر (الدايات)، لظلمهم الرعية وطغيانهم على الناس، وتمرُّدهم على السلطان العثمانيّ، وهو لا يرى أَنّ ظُلْمَ الوالي منوطٌ بالسلطان، بل أحسن الظّنَّ بالسلطان، وإِن أساءَ مَن انتسب إليه.

وهذا المنهج الذي كان عليه الأمير أحمد من نقد الظالمين من الحكّام يعكس ما عليه السّادة الصّوفيّة في القرن التّاسع عشر من جهادٍ ضدّ ولاة أمر المسلمين الظالمين، وضدّ المحتلّ الأجنبيّ الغازي، لا يُفَرقُ بين مسلم ظالم ومعتدٍ أجنبيّ، فقد قال: إنّ مملكة العدل مع الكفر أدوم من مملكة الظلم مع الإسلام.

ومما امتاز به منهج الأمير أحمد في كتابه: أنه التزم منهج العلماء السابقين الذين كانوا لا يقيمون وزناً للعصبيات العرقية، أو القبلية، فلا يفرقون بين عربي وبربري إلا بالتقوى، والوفاء لقيم الإسلام، فقد كان رحمه الله تعالى يذكر الخارجين على الأمير الذين أيدوا المحتل من قبائل البربر فيقول: البرابرة، كما هو الحال عندما يذكر الخارجين عليه من

قبائل العرب الذين أيدوا المحتل وناصروه أيضاً فيقول: الأعراب، فيميز بين البربر الأمة القائمة، وبين البرابرة العصاة، كما يميز بين العرب الأمة القائمة، وبين الأعراب العصاة، وهذا مصطلح تجده في القرآن الكريم، فالعرب والبربر شعوب وقبائل بفروعهم وألسنتهم انصهروا بتعاليم الإسلام، فكونوا أمة عالمية أنتجت حضارة إنسانية، وما كنا لنلجأ إلى هذه المصطلحات التاريخية التي عفا عليها الزمان إلَّا بعد أن استردَّت هذه الشعوب هُوِيَّتَها العُليا، وهي الهوية الجزائرية بعد تحريرها من الاحتلال، وذَكَرْنا الشرح كيلا يساء النظر فيما يراه القارئ في الكتاب من تسمية الأمم بشعوبها.

وهذا المنهج أيضاً مما تضمنته كتابات الشيخ أحمد في نظرته إلى الأمم الأخرى، لا يقيم وزناً إلا لقيم الحق والعدل التي جاء بها الإسلام، فكان عنده المسلم الظالم، والمعتدي الظالم في الميزان سواء، ولا شك أَنَّ هذه تعاليم القرآن وروحه. وكثيرة هي العِبَرُ التي يستخرجُها المرءُ من النظر إلى كتاب الشيخ العلامة أحمد بن محيي الدين (نخبة ما تُسَرُّ به النواظِر) التّامّ الذي أرّخ من بداية دخول العرب إلى شماليّ إفريقيا إلى

القرن التاسع عشر، وسنسعىٰ في تحقيقه ونشره في المستقبل إن شاء الله.

نسخ منه الشيخ القاسمي عن الشيخ الجزائري تاريخ إِمارة الأمير عبد القادر، وسنضع نماذج من أصل هذه الترجمة بخطّ القاسميّ كي يقفَ القارىء عليها.

كما سنضعُ نماذج مِن مخطوطة (نُخبة ما تُسرُّ به النّواظر) التّامّ بخطّ مؤلِّفه الشيخ أحمد بن محيي الدّين.

وتسجل هذه العلاقة بين الشيخين الأخلاق العالية الرفيعة التي كانت بين العلماء في القرن التاسع عشر، إِذ لم يجد الشيخ القاسميُّ الأصوليُّ بأساً في أَنْ يسأل الشيخَ الصّوفيَّ المالكيَّ الأميرَ أحمدَ بعض الفتاوى في الدين، ويستفتيه في بعض ما يعرض له، بل إِنَّ القاسمي خطَّ كتابَ (المواقف) للأمير عبد القادر بقلمه، وهو مستودع الحكمة وأسرار العرفان الرّبّانيّ، ومنها الآداب الرفيعة التي تحلى بها علماء الإسلام السابقون، نلاحظها عند الشيخ أحمد وهو يروي كيف منع محمد علي باشا والي مصر أخاه الأمير عبد القادر من الدخول إلى بلاده حين استنجد به من فرنسة،

ففــي الكتــاب يــذكر ذلــك بكــل حيــادٍ ووصــفٍ مجــرَّدٍ، ولم يتعــرض لــوالي مصــر محمــد عــلي باشــا بســوء لرفضــه وســاطة إِخلاء سبيله وقبوله دخول مصر.

وإن كتابنــا (نخبــة مــا تُســـرُّ بــه النــواظر) لمؤلفــه الأمــير أحمــد، وكتــاب (تحفــة الزائــر) لمؤلفــه الفريــق أول، الأمــير محمــد، نجـل الأمـير عبـد القـادر همـا المرجعـان الوحيـدان اللـذان أرَّخـا لحقبة الأمير، وهمـا شـاهدان عـاصرا حقبـة الأمـير: فنجـد الأمـير أحمـــد في كتابـــه (النخبـــة) شـــيخاً يكتـــب بلغـــة واقعيـــة نقديـــة عمومية غـير تفصـيلية، فمـثلاً لم يسـمِّ القبائـل بأسـمائها، لكنـه مـا ترك موقفاً إلا وذكرها.

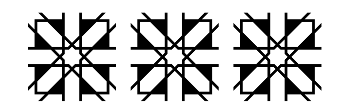
وأمَّـــا الأمـــير الفريـــق أول محمـــد باشـــا فهـــو قـــاضٍ، حقـــوقيٌّ، ورجـــلٌ عســـكريٌّ، وضـــعَ كتابَـــه (التحفـــة) بلغـــةٍ موضـــوعيةٍ تفصـــيليةٍ تحليليـــةٍ مقارَنـــةٍ بـــأقوالِ المستشـــرقين، مـــع عدم انتقاده لأبيـه في بعـض الأزمـات السياسـية لمـا يخـص علاقـة الأدب بين الابن وأبيه.

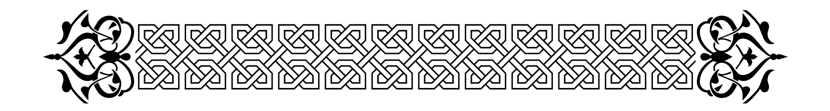
فجـــاء الكتابـــان شـــهادةً عـــلى الواقـــع، ودراســـةً موضـــوعيةً، ونقديـــةً تحليليـــةً للأحـــداثِ وأخبـــار مـــا جـــرى،

وقد سبق تأليفُ كتابِ (نخبة ما تسر به النواظر) للأمير أحمد كتابَ (تحفة الزائر) بسنواتٍ، كما سبق تأليف التحفة تأليفَ موسوعة (تعطير المشام).

وتأملُ المؤسسةُ أَنْ تكون قد قدّمت في نشر هذا الكُتَيِّب اللّطيف الحجم زاداً معرفيّاً تاريخيّاً يمثّل شهادة حيَّةً موثَّقة تُنير جانباً مِن صفحات تاريخ الجزائر.

رئيس المؤسسة المؤقت
العبد القوي بالله
جعفر الحسني الجزائري





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشيخ
جمال الدين القاسمي

الأمير السيد عبد القادر بن السيد محيي الدين بن السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد المختار الحسني الجزائري، قدس الله سرّه العزيز.

فرع دوحة الشرف الزاهر، وطراز عصابة الحسب الباهر، أمير المجاهدين في الأقطار المغربية، والقائم بنصرة الدين بالهمم العلية، المشكورة في سبيل الله مساعيه الحسنة، والمتفقة على كمال وصفه الآراء والألسنة، العريق في الرئاسة والسيادة، والحقيق بارتداء الفخر والسعادة، الجامع بين العلوم الظاهرة والباطنة، والمتضلع من أسرار المعارف الكامنة، محيي معالم الجود والكرم، مجدد محاسن الأخلاق والشيم، وارث رتب المجد كابراً عن كابر، سلالة المفاخر

التي طاب أولها وزكا الآخر، محط رحال الفضلاء وموئل القصاد والنبلاء، من طار صيته في سائر الممالك، ومشت حصاة فضله في أقاصي العمران والمسالك، ومحاسنه شهد بفضلها الخاص والعام، ومآثره ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام، قدس الله روحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه[1] وصبوحه[2].

لا ريب أن سيرة هذا الأمير تحتاج إلى تأليف كبير، وقد بلغني أن أحد أنجاله[3] الكرام ألّف في ذلك كتاباً حافلاً بديع الانتظام، بيد أنه لم تشرق من كنزه مطالعه، ولا أسفرت من خزائنه طلائعه.

وقد يسر الله لنا[4] صحبة أخي الأمير، المنوه به العالم العامل التقي، والفاضل النحرير النقي، بهجة الشرفاء وتاج

---

(1) الغبوق: شراب العشي.

(2) الصبوح: شراب الغداة.

(3) هو الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، (1256-1331هـ) وكتابه: (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر)، مطبوع في جزأين.

(4) هذا كلام الشيخ جمال الدين القاسمي.

اللطفاء، ذي المجد السني السيد أحمد الحسني حفظه الله تعالى فلم تبرح تضمُّني وإياه مجالس حسنة، فيما يقرب إلى الآن من خمس عشرة سنة.

وكنا كثيراً ما نعطر مجامعنا بأريج سيرة أخيه الأمير المشار إليه، ونتروح بعجائب تلك الوقائع التي مرت عليه.

ولما جمعت هذا التاريخ[1] أشرت على جنابه بجمع ترجمة لسعادة أخيه الأمير، وما شاهده من سيرته في توليته: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر، الآية:14]، فانتدب حرس المولى علاه، وصنف في ذلك كتاباً رشيقاً مبناه، رقيقاً معناه، سماه (نخبة ما تُسَرُّ به النواظر، وأبهج ما يُسَطَّرُ في الدفاتر في بيان تولية ذي الكمال الظاهر والنسب الطاهر سعادة الأمير السيد عبد القادر بن محيي الدين في إقليم الجزائر)، وسبب تسليمه فيه مما ثبت لديه من الأخبار الصحيحة التي حصلها، والحوادث التي شاهدها وأبصرها.

---

(1) هو كتاب: (تعطير المشام في مآثر دمشق والشام)، مخطوط في الخزانة القاسمية.

وقد قلت في تقريظه:

ذي نخبــة سرت فــؤاد النــاظرِ

أبهــى مــآثر سُــطّرت بــدفاترِ

مــن سـيرة المـولى الأمـير المجتبـى

العــارف الحسـنيِّ عبـد القــادرِ

مــن أدهشَــتْ آثـاره أهـل النهـى

وغـدت بجيـد الـدهر عقـد جـواهرِ

يـا طالمـا الفضـلاء وَدَّتْ لـو تـرى

آثــاره جُمِعــت بِسِــفرٍ بــاهرِ

كــيما تُحــلّي فكرهــا أخبــارُه

أيــام دولتــه بقطــرِ جزائــرِ

وإذا النفــوس تعطَّشــت لمؤَلَّــفٍ

في ذلــك النّبــأ العظـيم الغــابرِ

أمضــى اليــراع لــذا أخــوه

مجــداً وفضــلاً فــوق كــل منــاظرِ

الحــبر أحمــد بهجــة العلــماء مَــنْ

ورث المعــارفَ كــابراً عــن كــابرِ

فأبــان منتخبــاً عظــيماً وقعــه

لاحــت بــه آيــاتُ صــدقٍ ظــاهرِ

لا زال جامعُـــه يفيـــد لطائفـــاً

تُمـــلى وتُـــتلى في رؤوس منـــابرِ

مـا فـاح طيـب مـآثر النـبلاء مِـنْ

روض المعـــارف بـــالكمال الـــوافرِ

وقــدَّم زيــد فضــله في طليعــة الكتــاب تقلّــب الأحــوال على إقليم الجزائـر بالإجمـال، ممـا لا يسـتغني عنـه المتعطش لتلـك الآثار التي هي من عجائب ما أبدعته يد الأقدار.

ولنذكر شـذرة مـن عقـدها الفريـد تمهيـداً لتوليـة الأمـير، وتتميماً لفائدة بنائه الحميد.

استيلاء العثمانيين على الجزائر وتونس

قـــال حفظـــه الله تعـــالى: لمـــا امتـــدت دولـــة إســـبانيا للاستيلاء عـلى إقليـم الأنـدلس أرسـلت للدولـة العليـة العثمانيـة كـبراء ذلـك الإقليـم يسـتنجدونهم، فأرسـلت لهـم نجـدة عظيمـة إلا أنه أبطأ قـدومها، فلـما توسـطت تلـك النجـدة البحـر سـمعت بـأن إسـبانيا تغلبـت عـلى جميـع ذلـك الإقليـم، فرجعـت تلـك النجـدة إلى الجزائـر فملكتهـا وسـلكت تـونس ومـن وقتئـذ

صارتا وجميع إقليميهما تحت الدولة العثمانية وقد كانت تلاشت دولة بني زيّان الملقبين ببني عبد الواد من تلمسان، كما تلاشت الدولة الحفصية مِنْ تونس، وذلك في أواخر قرن التسعمئة ولما ملك العثمانيون الجزائر حولوا الهيئة الملكية من تلمسان إلى الجزائر لوقوعها على ساحل البحر فمعظم تمدنها بذلك زيادة على ما حصل لها من التمدن بسبب توطن مهاجري الأندلس بها وكانت قديمة قرية مخشوشنة تسمى بقرية بني مَزْغَنّة.

وبعد تمهيد العثمانيين لها وجعلها قاعدة ذلك الإقليم بدت بها الصنائع الغريبة والأشياء المزخرفة العجيبة، والأبنية المشيدة والأسرة المنضدة والحصون المنيعة، والقلاع الوثيقة، وقد جبي إليها خراج ذلك الإقليم مدة ثلاثمئة وسبع وثلاثين سنة، واستقر الملك بها في المدة المذكورة، وكانت في المئة الأولى وبعدها بقليل تحت إدارة الدولة العثمانية بحيث إن واليها يتولىَّ من طرفها ويعزل بأمرها، وكانت سيرتهم في ذلك الإقليم وقتئذ محمودة لعدلهم في الرعية وحسن سياستهم، ثم بعد ذلك استقل أولئك الأتراك الذين توالدوا

بإقليم الجزائر، ولم يبق بينهم وبين الدولة العثمانية اتصال إلا بالخطبة باسم السلطان العثماني، وضربَ السِّكّةِ[1] باسمه، وصاروا يولون الوالي مدة، ثم إذا شاؤوا قتلوه، وولّوا غيره.

ومن غريب ما اتفق لهم أنهم في يوم واحد ولَّوا سبعة ولاة، ينصبون واحداً، ثم يعزلونه ويقتلونه، ويولون غيره، وهكذا واحداً بعد واحد، ولم يتم الأمر إلا للسابع، ثم طغت تلك الأمراء، وتجبرت آخرَ أمرها على الرَّعية، وأكثرتْ مِنَ الظلم والعدوان وسفك الدماء بغير حق، وعثت في الإقليم وفسدت، فأهلكت الحرث والنسل، ولا سيما قبيل انقطاع دولتها، فقد اشتد ظلمها غاية الاشتداد حتى بلغ النهاية، وذلك علامة على الخراب سريعاً كما هي عادة الله تعالى في خلقه، يقال: إن الملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [سورة الإسراء، الآية: 16] ثم انتقم الله تعالى من أولئك الظَّلمة، وشتت شملهم، وأصبح

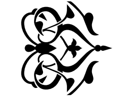
---

(1) السكة: النقد.

مُلْكهم هباءً منثوراً وقد كانت لها الرِّفْعَةُ[1] والسطوة العظيمة في ذلك الإقليم براً وبحراً، حتى إن مراكبها كانت كلما صادفت مركباً من المراكب الإفرنجية في البحر، أو رأته من بعيد تتوجه إليه ثم تطلق عليه صواعقها النارية فتفرقه أو تغنمه، وقد عظمت سطوتها في البحر على جميع الدول الأوروبية، وكانت مراكبها مصحوبة بالظفر والنصر أينما توجهت بحيث إنها لا تكسر لها راية في البحر أصلاً، وبذلك عظم طغيانها، وربما غزت مراكبها بعض الجزر البحرية، فتغنم ما فيها، وتحملها مع أهاليها أسرى إلى الجزائر، وقد تقصد مراكبها بعض المحلات المهجورة من البلاد الإفرنجية، فتخرج منها ليلاً إلى بعض ضيعهم القريبة من البحر، فتفعل مع أهلها ما تقدم وترجع، وفي يوم دخولها تجعل لها زينة عظيمة بالبلد، وتصلب رئيس الضيعة أو المركب الذي غنمته، وتجعله بصدر السفينة عند الدخول ليراه الناس مشنوقاً، ثم لما أكثرت من ذلك الفعل، واشتد ذلك على الإفرنج، وعظم لديهم، إذ كانت أسرت منهم خلقاً كثيراً.

---

(1) أي: مدينة الجزائر.



 هجوم الإنكليز على مدينة الجزائر

بسبب ذلك جاءت الدولة الإنكليزية إلى الجزائر قاصدة الانتقام، وأظهرت صورة السِلْم، ونصبت علامتها، وأشهرتها مكراً وخديعة فأُذن لها في الدخول إلى المرسى، فدخل ثلاثة مراكب من مراكبها الحربية، وكان ذلك النهار يوم عيد، والناس على غاية ما يوجد من السرور، ثم بعثت مكتوباً لوالي الجزائر عمر باشا، وانتظرت جوابه بسرعة، وكانت جعلت له أجلاً لردِّ الجواب، ثم ما لبثت تلك المراكب إلَّا برهة يسيرة بعد وصول المكتوب إليه، وبمجرد قراءة المكتوب، وأمر الوالي بردِّ جوابه، وإذا بالصواعق النارية أرسلت متتابعة بعضها إثر بعض بلا فترة، متعللاً أصحابها بعدم السرعة في ردِّ الجواب، ولدخولها تحت المرسى لم يتمكن لقلاع البلد تفريقها، إذ كان المرمى يتجاوزها، فحصل بسبب ذلك للأهالي وللحكومة اضطراب عظيم وتشويش بليغ، ولاسيما أنه قد حصل ذلك على غفلة وعدم أهبة حتى اضطرهم الحال إلى أن صاروا ينزلون المدافع من بعض الحصون بالحبال لأجل أن يتمكنوا من ضرب تلك المراكب

وإصابتها، وصارت الأهالي تضرب ما ظهر من نواتئ تلك المراكب وعساكرها بالبواريد، فلم يغن إطلاق الرصاص من الأهالي عنهم شيئاً، وقد خَرَّبَتْ تلك المراكب مع قلتها جملةً من البيوت المرتفعة وبعض شواهق الحصون، ثم وقع الصلح بينهما على أنهم يُسَلِّمُون إليها جميع ما في الجزائر وبجاية من الأسرى، وإن كانت من غير دولتها، ثم خرجت تلك المراكب من المرسى؛ إذ لا قدرة لها على أكثر ما فعلت، ولا غرض لها أزيد من ذلك إذ لا يمكنها هي ولا غيرها أخذ الجزائر وقتها، لأن قلوب الأهالي كانت لم تتفق على بغض حكومتها حيث إن الظلم كان خفيفاً يمكن للرعية تحمله، ولا يمكن لدولة من الدول أن تستولي على إقليم من الأقاليم مع اجتماع كلمة أهله، ولو بلغت ما بلغت من القوة إلا نادراً.



هجوم إسبانيا على الجزائر

وقبل هذه الواقعة كانت جاءت دولة إسبانيا إلى الجزائر، وأنزلت عساكرها إلى البر، فخرجت إليها عساكر الجزائر، واجتمعت الأهالي على جيوشها فانكسرت، وقُطِعَ

دابرها، وغنم المسلمون جميع ذخائرها التي أخرجوها إلى البر، ورجعت مراكبهم منكسرة الشوكة مخذولة.

الخلاف مع فرنسة

ثم في سنة 1245هـ وقع الخلاف بين والي الجزائر حسين باشا، وبين قنصل دولة فرنسا بسبب يهودي كان داخلاً تحت حمايتها، فتكلم القنصل مع الوالي في شأنه بكلام ألجأه الغضب منه إلى أن ضربه بمروحة كانت في يده بمجلس حكومته، فامتلأت صدور دولته من تلك الإهانة، وراسلت السلطان محمود خان بذلك / 488/ الفعل لما له من السيادة على حكومة الجزائر فبعث مكتوباً لذلك الباشا يُقَبح فيه فِعْلَهُ الشنيعَ وصُنْعَهُ الفظيعَ، ويأمره بأن يستجلب ذلك القنصل، ويفعل معه من الإحسان ما ينجبر به كَسر قلوب دولته بسبب تلك الإهانة الواقعة على رؤوس الأشهاد، فلم يمتثل لأمره ونبذ كلامه، فغضب عليه غاية الغضب زيادة على غضبه السابق على تلك الحكومة، وقال للدولة الفرنسية: إن أولئك الأشرار قوم عصاة مستقلُّون بأنفسهم فشأنكم وشأنهم، وليته لم يقل.

وسبب غضبه عليهم قبل ذلك؛ هو أن الدول[1] الأوروبية اتفقت جميعاً على أنها تجري القوانين السياسية التي[2] تحكم بها، واشترطت على السلطان محمود أن يُمَشّي ذلك في جميع رعيته، ويأمر جميع الأقاليم التي له عليها السيادة أن يجروها ويحكموا بها، وأن يتخذوا الهيئة العسكرية، فبعث إلى الدولة المصرية وإلى الدولة التونسية وإلى الدولة الجزائرية، فامتنعت الدولة الجزائرية الامتناع التام، وأنكرته كل الإنكار، ولاسيما حين رأت ذلك اللباس المُجَسِّدَ للعورة، وتلك الهيئة التي لم تكن مألوفة عند الإسلام.

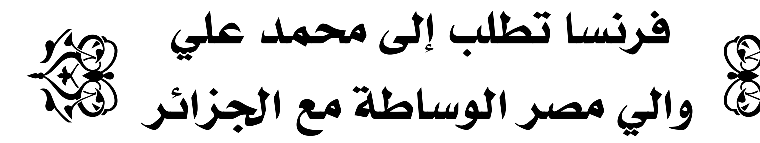
إن مأمور السلطان لما دخل الجزائر أمر بدق الموسيقا[3] العسكرية في تلك المراكب التي جاءت معه، فبعث إليهم والي الجزائر وقال لهم: إما أن تتركوا ذلك الدق ما دمتم في إيالتي (دولتي)، وإلا أمرت بتغريقكم. فلما رجع

(1) في الأصل: (الدولة).

(2) في الأصل: لا توجد كلمة (التي).

(3) في الأصل: (المويسيقا).

ذلك المأمور وأخبر السلطان بما شاهده منه ومن أهل مجلسه من الإنكار وشدة الامتناع غضب عليهم غاية الغضب، ولولا أنه كان مشغولاً بقتال الينكجرية وقرب عهده بمحاربة الموسكوف لبعث جيشاً لمحاربة حكومة الجزائر، وانتقم من ذلك الوالي وحزبه.



فرنسا تطلب إلى محمد علي والي مصر الوساطة مع الجزائر

ثم إن الدولة الفرنساوية لما كَبُرَتْ عليها تلك الإهانة، وعظم في عينها محاربة الجزائر لما كانت عليه من الصولة وقوة القلب والشجاعة، ذكرت لمحمد علي باشا والي الديار المصرية ما فَعَلَهُ والي الجزائر مع قنصل دولتها، والتمست منه أن يكتب مكتوباً لها بالمصالحة بينهما وأنه... يُوَطئُ نفسه بما فعله مع سفيرها، وأن يقبل التنظيمات التي بعث السلطان بها إليه.

فكتب إليه محمد علي باشا بأن ما فعلته من ذلك الفعل تأباه السياسة وكمال العقل واستدرك الأمر قبل تفاقمه

عليك، ومن المؤكد به عليك على وجه النصيحة أن تستجلب ذلك الشخص، وتعتذر إليه بكل اعتذار، وتجبر خاطره لتنجبر قلوب دولته، وإلا فلتعلمن بناء ما فعلته بعد حين. فأجابه لشدة فظاظته بما لا يستحسن ذكره عند ذوي / 489/ العقول من الكلام الوحشي، وذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فإن الحق تعالى إذا أراد أمراً سلب ذوي العقول عقولهم ولذا يقول بعضهم[1]:

أراد أمراً سلب ذوي

أراد أمراً سلب ذوي

إذا أراد الله أمراً بامرئ

وكان ذا عقلٍ وسمعٍ وبصر

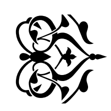
أصمَّ أذنيه وأعمى قلبه

وسلَّ منه عقلَه سلَّ الشعرْ

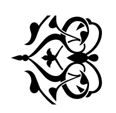
حتى إذا أنفذ فيه حكمَه

رد عليه عقلَه ليعتبرْ

(1) الأبيات بلا نسبة في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 16/ 131.



تسلط الفرنسيين على الجزائر



ولما أيست الدولة الفرنساوية من رجوعه عن طغيانه لقلة عقله وشدة صلابته وعظم حمقه وسوء تدبيره وقلة معرفته لإقبال نحسه، جمعت جيشاً يبلغ عدده ثمانين ألفاً، وهو وقتئذ غاية مقدورها بحيث إنها لم تترك في جميع مملكتها إلا شيئاً يسيراً من عساكر مما لا بد له منه للمحافظة، وقصدت الجزائر، فأطلقت صواعقها النارية عليها من البحر، فقابلتها الجزائرية بمثلها أو أعظم إلى أن صار النهار ليلاً من كثرة الضرب وتتابع الصواعق من الجهتين، ولما لم تستفد الدولة الفرنسية من ذلك الضرب شيئاَ، كرت راجعة إلى وراء، وتغيبت مدة أيام في البحر، ولسوء التدبير والتساهل في الأمور وعظم الغفلة وعدم اتخاذ الحزم، لم تبعث الدولة الجزائرية مركباً مِنْ مراكبها ليكشف لها خبر تلك الأساطيل والجيوش، وتقف على قصتها كي تتخذ ما يلزمها من الاحتياطات اللازمة، وتجعل حرساً في جميع الجهات، وفي جميع المظان التي يخشى خروج العَدُوِّ منها، بل غفلت كل الغفلة اعتماداً على ما أظهرته لها من شدة الضرب والشجاعة وقوة القلب، وظنت أن تلك الدولة انكسرت، وأنها رجعت

إلى بلادها، وسبب ذلك التساهل هو أن الدولة الجزائرية لم يبق لمراكبها حَزْمٌ بعد وفاة رئيس مراكبها وزعيمها المقدام أمير البحر الرئيس حميد الزواوي عليه رحمة الله.

وسبب موته هو أن المخابرة كانت مقطوعة بين دولة أمريكا وحكومة الجزائر، فجاء من الدولة المذكورة أربعة عشر مركباً من القِطَعِ الكبيرة التي تمشي بالهواء ونشر الشوارع[1] والقلاع، وذلك قبيل اختراع البوابير[2] وانتشارها بين الدول الأوربية، وقابلت الجزائر وجالت أمامها يميناً وشمالاً على البعد منها ترهيباً لأهلها. فلما أخبر بها والي الجزائر أمر الرئيس المذكور بالخروج إليها فقال له: إن الوقت غير مساعد للخروج ولا للضرب، فألزمه الخروج فخرج في جملة من المراكب، واشتطت النيران الحربية بين الفريقين فكانت الدائرة على المذكور، فاستشهد على مراكبه[3]، فغنمتها أمريكا.

---

(1) أصله شراع السفينة، وجمعه أشرعة، وشرع.

(2) البوابير: القوارب الصغيرة، أو مراكب ملكية خاصة، وهي كلمة أعجمية ليس لها أصل في المعاجم العربية.

(3) ربما كان المقصود استشهد على مراكبه، والواو زائدة.

وبعد هذه النكبة لتلك الدولة وقع ما وقع بين فرنسا وبينها ثم إن الجيوش الفرنسية لما توسطت البحر اجتمع رئيسها مع كبرائه، وفكروا في أمرهم عند قصدهم معاودة ضرب الجزائر والانتقام من واليها وقالوا: لا يكون لنا تدبير مصيب للغرض ونهاية في المطلوب من كوننا نستغفلهم، ثم ننزل[1] عساكرنا إلى البر، ونجعل لها استحكامات، ثم نحاربهم فيه، وتكون مراكبنا بإزائنا، إذ محاربتنا لهم من جهة البحر لا نستفيد منها سوى الحرمان ومزيد الخسران، لما للبلاد من التحصن وقوة التمكن، وإنما يأتونها من بعض الجهات البرية، فرجعوا ليلاً وقصدوا[2] محلاً مهجوراً يسمى بسيدي فرج بينه وبين الجزائر أربع ساعات من الجهة الغربية، وأنزلوا عساكرهم فيه واتخذوا لها ما يلزمها من الاستحكامات، فما أصبح النهار إلا وكان ذلك المحل مملوءاً بالعساكر الفرنسيين[3]، فإنهم أنزلوا ستين ألفاً، وأبقوا في

---

(1) في الأصل: (نزل).

(2) في الأصل: (مقصدوا).

(3) في الأصل: (فرنسوية).

المراكب منها ما أبقوا، فخرجت عليهم العساكر الجزائرية، وكانت قليلة جداً؛ إذ كان جميع ما عندهم من العساكر في ذلك الإقليم يجمعه ثمانية عشر ألفاً من الأتراك وأولادهم، وكانت مفرقة ذلك العدد على جميع مدن الإقليم، وتحارب بهم مع عساكرها، فجمعت ما تيسر عليها جمعه، وخرجت فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزمت الجيوش الجزائرية الأتراك[1]، وتقدمت الفرنسية بعض التقدم، وزاد الأتراكَ خُذْلاناً بُغْضُ أصحاب الإقليم لهم بما أبدوه من الظلم الفاحش للرعية، ولرؤساء الأقاليم في آخر أمرهم كما قدمناه، وبسبب ذلك نفرت منهم القلوب جميعاً مع ما كان يرسله رئيس الجيوش الفرنساوية من المخادعات، وتارة يلقيه في الطرقات أثناء المحاربة ليصل إليهم، من أنه إنما أتى بأمر من قبل السلطان محمود ليأخذ حسين باشا إليه، ويرد إليهم واليهم السابق، فغرَّهم كل الغرور بهذه المخادعة وثبطهم بها، وفرق كلمتهم بسببها، فلم يجتهدوا في المحاربة كل الاجتهاد، وصار بعضهم يتقدم للمحاربة مجتهداً ناوياً للجهاد والدفع

---

(1) المقصود الحامية العثمانية التركية.

عـن الـوطن والـبلاد، وبعضـهم يقـول: لا مقتضـى لهـذه المحاربة حيث إن باشا ذاهب وآخر قادم.

ثـم وقـع الحـرب بـين الفـريقين ثانيـاً، واشـتد غايـة الاشـتداد وجـاءتهم جمـوع قبائـل، وطلبـت مـن الـوالي إعـانتهم بالأسـلحة والبـارود، فلـم يـرض أن يعينـهم، وقـال لأحمـد بـاي والي المدينـة لمـا طلـب منـه ذلـك إلـيهم: قـل لهـم أن يضـربوهم بالحجـارة ويهجمـون علـيهم بالعصـي، فـإني لا أقـوي هـؤلاء البرابرة بالأسـلحة والبـارود، إذ ذلـك خـلاف الحـزم. ثـم اقتتلـوا بعـد ذلـك، فانهزمـت الجيـوش التركيـة انهزامـاً فشـلت بـه كـل الفشـل، وتقـدمت الجيـوش الفرنسـية مـن البلـد، فعنـد ذلـك تـيقن والي الجزائـر وحزبـه اضـمحلال أمـرهم، وأصـبحوا آيسـين مـن النجـاح، وتقطعـت بهـم الأسـباب، فـما وسـع الـوالي إلا أن بعـث مفتـي الجزائـر في جملـة مـن أعيانهـا إلى رئـيس الأسـاطيل البحريـة ليؤمنـه ويـؤمن الأهـالي مـن السـبي والنهـب، فـذهبوا إليـه وكلمـوه في ذلـك، فأجـابهم بـأن الأمـر كـان قبـل نـزول العسكر إلى الـبر مفوضـاً إليّ، وأمـا الآن فهـو بيـد رئـيس الجيـوش البريـة، فرجعـوا مـن البحـر، وذهبـوا إليـه، وطلبـوا منـه الأمـن

والأمـان للـوالي المـذكور وللأهـالي، وطلبـوا منـه أن يتعهـد إلـيهم بـأن الدولـة الفرنسـية تقـرهم عـلى عوائـدهم الإسـلامية، وتبقـي لهـم شـعائر ديـنهم، وألَّا تتعـرض لهـم في أمـر ديـانتهم بشـيء، فأجـابهم بـالقبول إلى جميـع مـا طلبـوه منـه، وكتـب لهـم صـكاً[1] وختمه عـلى التعهـد بـما اشـترطوه، فرجعـوا إلى الـوالي، وأخـبروه بـما وقـع مـن اشـتراط الاطمئنـان العمـومي، فحينئـذ فتحـت الأبـواب للعسـاكر الفرنسـية[2] فـدخلت، وكـان ذلـك اليـوم أنحس الأيام على ذلك الوالي وحزبه.

واسـتلمت الجيـوش الفرنسـية[3] القـلاع والحصـون، واستولت عـلى البلـد ومـا بهـا مـن الـذخائر والنقـود التـي كانـت تجبى إليها من مدة ثلاثمئة وست وثلاثين سنة.

وكـان مـن الغرائـب أن الدولـة التركيـة لم تثبـت في النـزال إلا مدة عشرين يومـاً، وكـان المظنـون بـل مـن الأمـور المحققـة أن الجزائر لا تؤخـذ مـنهم إلا بعـد دوام الحـرب شـهوراً متعـددة، لمـا

(1) في الأصل: (صطاً) وأثبتها في المتن: (صكاً) لأن هذا هو المشهور.

(2) في الأصل: (فرنسوية).

(3) في الأصل: (فرنسوية).

هو مشهور لدى العموم والخصوص من شجاعتهم وقوة قلوبهم التي اكتسبوها من خاصية ذلك الإقليم، وهذا هو الذي أوهم ذلك الوالي وأعماه حتى فعل ما فعل ولم يسمع كلام السلطان محمود ولا نصيحة محمد علي باشا، وأظهر ما أظهر من الفظاظة وشدة الغلظة، وأوهمت غلظته الدولة الفرنسية[1] وظنته أنه على شيء مع ما كان يُسمع عن تلك الحكومة من الشجاعة وقوة الحزم.

وبسبب ذلك تأنَّت كل التأني وصبرت كل الصبر، ولم تبادر بالحرب خشية أن تعجز عن مطلوبها، ولا يتم لها مرغوبها، حتى رفعت أمرها إلى السلطان محمود مع علمها بأن تلك الحكومة مستقلة بنفسها بلا شك، ولا ريب، وطغيانُ أتراك الجزائر وظلمهم لرعيتهم هو الذي أوجب خذلانهم وخسرانهم واضمحلال أمرهم، وقد قيل[2]:

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) التبيان لأبي الفتح البستي في ديوانه ص81، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق 1989م، ورواية البيت الثاني فيه:

عليك بالعدل إن وُلّيتَ مملكة

واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالمُلك يبقى مع عدلِ اللئيم ولا

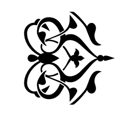
يبقى مع الجور في بَدْوٍ ولا حَضر

وكانت نفوسهم تحدثهم بأن لا أحد من الدول يقدر عليهم، وأن الشجاعة التي كانت تظهر منهم إنما هي من نفوسهم، ولم يعلموا أن تلك الشجاعة إنما جاءتهم من أهل الإقليم والتفاتهم إليه لما كانوا عليه أولاً من العدل واتباع الشريعة المطهرة، وإظهار السياسة التامة، فلما رفضوا ذلك رفضتهم قلوب الأهالي، فلم يبد من شجاعتهم شيءٌ لا كليٌّ ولا جزئي، ولا انتصروا يوماً واحداً في محاربتهم في البر عند خروج الجيوش الفرنسية[1] إليهم ومحاربتهم لهم فيه، وأخذت منهم الجزائر في برهة يسيرة مع شدة شكيمتهم وقوة ثباتهم، وادعائهم أن لا أحد من جميع الدول يقدر عليهم.

فالعدل يبقيه أنى احتل من بلد

والجور يفنيه في بدو وفي حضر

(1) في الأصل: (فرنسوية).



الاستيلاء على وهران وغيرها



ثم إن الدولة الفرنسية لما استولت على الجزائر بقيت ستة أشهر بها، ثم وجهت بعض المراكب إلى وهران وبعضها إلى بونة فملكتها، ولما أرسلت المراكب على وهران شرعت الأهالي في نهب الأشياء التي تخص الدولة التركية، ووالي وهران يشاهد ذلك ويراه، وهم يقتسمون الدواب والذخائر ولا يقدر هو، ولا أحد من حزبه يتكلم في ذلك، وقد أنزل الحق تعالى الأتراك منزلة لم يكونوا يعهدونها، ولا كانت تخطر ببال أحد من الناس؛ إذ كان لهم من الهيبة والعظمة والإجلال ما لا يعبر عنه لسان، والموجب لذلك كثرة الظلم الذي تردوا به حتى صار شعاراً لهم، ولذلك حل بهم الويل والنكال، فسبحان من أبى العظمة والكبرياء لغير وجهه الكريم.

ثم إن الدولة الفرنسية لما استولت على غالب أساكل[1] إقليم الجزائر كوهران، ومستغانم وبونة وبجاية وغيرها قنعت بها ولم يخطر لها خاطر في تملك بقية المدن البرية

---

(1) المقصود بالأساكل: مرافئ السفن، واحدتها إسكِلُةٌ.

أصلاً لعظم جهلها بالإقليم وأهله، حتى أنها رغَّبَت حاكم تونس في أنها تُسلِّم إليه وهرانَ مع كونها أعظم أساكل ذلك الإقليم بعد أسكلة الجزائر، لتكون الدولة التونسية والوقاية لها من شرور أهالي ذلك الإقليم، لكون الإسلام يجمعهم حيث إنها في ذلك الوقت لم تكن لها نية التملك بعد ذلك، فبعثت الدولة التونسية خير الدين باشا إلى وهران، فلما وصلها بعث لبعض الرؤساء من وجوهها ولكبراء الدوائر وتكلم معهم في ذلك فأبوا، ولا سيما حين رأوه متهيئاً بالهيئة الإفرنجية في اللباس والمأكل، وكانوا يكرهون تلك الهيئة وينكرونها كل الإنكار وبسببها أعرضوا كل الإعراض الكلي وصار عندهم كالمسخرة، وظنوا أن مجيئه خديعة لهم من الفرنسيين[1]، وبقي مدة ينتظرهم فلما لم ير منهم أدنى توجه ولا إقبال رجع من حيث جاء.

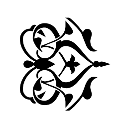
ثم إن المدن البرية بقيت فوضى في ذلك الإقليم بعد استقرار الدولة الفرنسية[2] في أساكل الإقليم واشتعلت

(1) في الأصل: (فرنسوية).

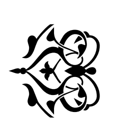
(2) في الأصل: (فرنسوية).

النيران الحربية فيه من جميع الجهات بالقتل والنهب والضرب والخراب والسلب وانقطاع السبل بأخذ الأموال وقتل الرجال ودام الحال على هذا المنوال أربع ساعات بحيث لا آمر يأمر بالمعروف ولا ناهياً ينهى عن المنكر، ولو وجد لا يسمع لقوله ولا يلتفت لنهيه. وشنت الأعراب الغارات على بعضهم بعضاً، وحصروا المدن التي بالإقليم من جميع الجهات، وكذلك برابر الإقليم أكثرت من التعدي على من يجاورها فكثر الهرج والمرج وأصبح الناس في ضنك وحرج، اشتد الحصار وعظم الضيق والشدة والبوار حتى بلغت القلوب الحناجر، فلما رأى ذلك ذووا الرأي السديد والعقل الكامل الحميد أجمعوا على أن يدبروا أمراً يصلح به شأنهم وتجتمع به كلمتهم ويلتئم شملهم، ثم اتفقوا على أن يسلموا الإقليم لسلطان مراكش السلطان عبد الرحمن بن هشام، فذهب جمع منهم إليه، وطلبوا منه، ذلك فأجابهم لما طلبوه، وأعطاهم جيشاً فدخل مدينة تلمسان ومعسكر وغيرهما من بقية المدن، فأمروا ونهوا في الإقليم مدة شهور، ثم صدر الأمر إليهم من ملكهم أن ارجعوا فرجعوا بعد أن لبثوا مطمئنين

مدة سبعة أشهر وما يقرب منها، ثم خرجوا من الإقليم بلا سبب ظاهر، وعند خروجهم أخذوا جميع ما وجدوه من الأشياء التي كانت تخص الدولة التركية من الخيول وغيرها مما علموه ويخف عليهم حمله، ولم يتركوا إلا المدافع التي كانت بالأسوار، فإنهم لم يتعرضوا لها لثقلها ولئلا يظهر لأهل الإقليم تخليهم عنه فيحصل تشويش، وربما تقع فتنة بسبب ذلك. والذي يظهر أن خروجهم كان بواسطة تكلم الدولة الفرنسية مع ملكهم بأننا بصدد الاستيلاء على جميع ذلك الإقليم، وها نحن قد استولينا على غالب أساكله، وكيف بك بعثت جيشك إليه، وبذلك صدر أمره برجوع خيوله التي كانت في الإقليم فرجعت ولا سبب غير هذا يظهر، والله أعلم. وصفة رجوع ذلك الجيش هو أن رئيسه أمر بحضور جميع ما في الإقليم من الخيول، وأشاع أنهم غازون على أعراب أُخر بمحل آخر، وهكذا إلى أن خرجوا من الإقليم جميعه بلا أدنى مكدر، ودخلوا في إقليمهم، ولولا احتيالهم على الخروج بهذه الكيفية لحصل لهم غاية التكدير لو استشك برجوعهم أهل الإقليم وتخليهم.



رغبة الأهالي في تولية الأمير عبد القادر



ثم لما رأى أصحاب الإقليم ذلك الفعل فكروا في أمرهم لعلهم يقعون على رجل منهم يصلح به شأنهم، وتجتمع به كلمتهم من أهل الإقليم، فلم يجدوا بيتاً[1] مشهورةً لديهم أهله، مسموعة الكلمة لدى الخاص والعام في جميع ذلك الإقليم، جامعة للغنى والعلم وتمام الفضل وكمال الفروسية من قديم الزمان إلا بيت السيد عبد القادر بن المختار الحسني، ولا شخصاً معظماً عند أهل الحضر والبوادي يتفق جميع أصحاب الإقليم على كماله وفضله، وهو أهل للرئاسة وشروط الإمامة متوفرة فيه، وله أعوان وأنصار على نصر المظلوم وكف الظالم عن ظلمه سوى السيد محيي الدين بن السيد مصطفى من أولاد السيد المذكور وخلاصة ذريته، فجاؤوه وطلبوا منه أن يتولى أمرهم ويبايعوه على السمع والطاعة على أن يقيم فيهم الحدود الشرعية، ويكف الأشرار عن شرهم، وأن يزجر المتغلبين ويردعهم على

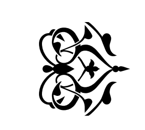
---

(1) أي قبيلة.

عتوهم وغيّهم، فامتنع من ذلك كل الامتناع، فألحوا عليه المرة بعد المرة، وكلما طلبوه يتعلل بأشياء ككبر السن وغيره لما يعلمه من أن الإمارة شأنها عظيم وخطبها جسيم، وتحملها يسلب الراحة عن القلب، ويجلب له المصائب والهموم، ويوجب تشتيت البال والنكد والغموم وهو في غنى عن رئاسة التولية والشغل بها لوافر غناه وسماع كلمته في إقليمه وعظمته في قلوب أهله على ما هو بصدده من التفاته لمولاه ونظره في عقباه، وكان سنه وقتئذ يقرب من الستين سنة، ولذلك لم يرض التولية لنفسه بل ولا رضي بها لولد من أولاده، وكلما سألوه ذلك له أو لولد من أولاده ينكر ذلك عليهم ويأباه، وقد تكرر الطلب منهم له مدة ثلاث سنين، فلم يجب أحداً منهم.

فلما كثر الهرج والمرج وازداد الضيق على المساكين والضعفاء وعظم الحرج، وتكرر الإلحاح عليه المرة بعد المرة وصار أمر الإقليم إلى التلاشي والاضمحلال، وانقلب إلى أسوأ حال، إذ قد انسدت الطرقات، وتوالت الحسرات، ولا معين للضعيف، ولا ناصر إلا الحق جل جلاله، أجابهم

لمطلوبهم ووعدهم بأنه سيفعل، إذ رأى الأمر قد تعين عليه، فصمم على الإذن في الإمارة لولده المعظم الكامل السيد الأمير عبد القادر لِمَا رأى فيه من النجدة وتمام الشجاعة والفروسية وقوة القلب والتأني في الأمور والتؤدة في المصالح والثبات في الخطوب العظام، وكمال العقل وزيادة المروءة والفضل.



استشهاد ابن أخي الأمير السيد أحمد في غزوة وهران

وقد كان جريه في الغزوات التي كان يحضر معه فيها ولاسيما في الغزوة التي مات فيها السيد أحمد المجاهد ابن السيد محمد السعيد أخي الأمير، فقد أبدى الأمير فيها من الشجاعة والثبات وقوة القلب ما شاع وذاع لدى الكُمَّل والرعاع، وذلك أن السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر جمع جموعاً من الأهالي، وذهب بها غازياً وهران ومعه أولاده الثلاثة السيد محمد السعيد والسيد عبد القادر صاحب الترجمة والسيد المصطفى وابن ابنه الشهيد المذكور، وفي أثناء

الطريق مرض السيد محيي الدين، ورجع فذهب أولاده المذكورون بذلك الجمع، وغارت بعض الخيول على من خرج من البلد فأصابت خيلاً وبغالاً وبقراً وقتلت من صادفته ثم قربت تلك الجموع من البلد، فأغلقت أبوابها، ووقعت الحرب مناوشة بينهم على الأسوار، وأطلقت عليهم بعض المدافع من البلد، فتزحزحوا عنها يسيراً، ثم أصابت رصاصة الشهيد المذكور، فوقع على الأرض من فرسه، فرآه والده، فتقدم نحوه، ووقف على رأسه، فنطق بالشهادة، ثم فارق الدنيا، وبقي والده واقفاً عنده متحيراً، لا يدري ماذا يفعل حيث لا قدرة له على حمله لنحافة جسمه، ثم لحقه الأمير، ونزل من فرسه وحمله مع جلالة الخطب وشدته، ثم لحقهما جملة من الفرسان الحشم، ووقفوا في وجه العدو حتى حملوه على بغل وقد تعجب الحاضرون[1] من اقتحام الأمير ونزوله عن ظهر فرسه من شدة الأمر، ولم يتركه للأعداء تمثل به، وكانت المدافع تطلق عليهم نيرانها وخيول العدو وعسكرهم ومدافعهم متوجهة إليهم من البلد، ثم وقعت

(1) هنا تميزت قدرة الأمير البدنية، وشجاعته.

المحاربة، فكرَّت خيول المجاهدين راجعة إلى وراء، فلحقهم خيول من العدو، فقتل المجاهدون جميع الخيول التي لحقتهم، ولم تدم محاصرتهم للبلد إلا مدة قليلة لعدم وجود السيد محيي الدين معهم.

ولما رأى أصحاب ذلك الغزو ما رأوه فيه من الشجاعة والثبات حيث إنه لا يمكن أن ينزل واحد عن ظهر فرسه في مثل ذلك الموطن إلا القليل عظم في قلوبهم وطلبوه من والده بالخصوص، وأن يأذن له في الإمارة والتقدم، فركن لمطلوبهم إلا أنه لم ينشرح لذلك كل الانشراح لصعوبة الأمر وجلالة الخطب.

ثم إنه لما غزوا وهران آخر غزوة، وكان أصيب فيها من الخيول سبعون فرساً لجموعه، إذ كان قبل تولية ولده الأمير المترجم يجيش الجيوش، ويجمع الجموع، ويغزو بها وهران، ويحاصرها الأيام والليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى محله بالقيطنة خارج مدينة معسكر حضر لديه جمع من رؤساء الإقليم وكبرائه ممن لهم فيه الحل والربط وقالوا له: قد استحسنا أن تبعث معنا السيد المذكور لنذهب به إلى مدينة

معسكر، ونجمع من كل بيت منها ريالاً للمجاهدين الذين ماتت خيولهم ليشتروا بدلها، فأجابهم إلى ذلك ولم يخطر بباله أنهم يبايعون ولده في ذلك النهار، وإنما كان مراده والله أعلم أن يبعث لرؤساء الإقليم، فتجتمع كلها كعادتها في المهمات، ثم يقدم إليهم ولده فيبايعوه.



مبايعة الأمير

غير أن أولئك الرؤساء لما فهموا من سعادته الركون لما طلبوه منه أخذوا الأمير، وتوجهوا به إلى معسكر في موكب عظيم، فلما قربوا منها نزلوا في محل خارجها، واستحسنوا أن يعقدوا له البيعة في ذلك المحل، إذ كان المحفل مشتملاً على أغلب علماء الإقليم وذوي الهيئات والكمال منهم وأهل الحل والربط من مشايخ العرب ووجوه مدينة معسكر ويبايعونه بيعة خاصة، ففعلوا، وبايعه جميع من كان بذلك المحفل خارج البلد وكتبوا له البيعة، وقرأ كل واحد منهم ما كتبه على ذلك الجمع. وكان ذلك بأوائل رجب سنة 1248هـ، وبعثوا للبلد، فأحضروا الطبول، ثم اجتمعت عليه جموع من

تلك الجهات، وأدخل البلد والطبول تدق أمامه، وهم على غاية من السرور، فلما دخل المدينة أطلقت المدافع من أسوارها إعلاناً بتوليته وفرحاً بما وقع من اجتماع كلمة الموحدين[1].

ثم بعد أن ثبتت البيعة لسيادة الأمير بما فعله العلماء المتقدم ذكرهم، كتب والده الجليل السيد محيي الدين لرؤساء الأقاليم جميعاً وصناديده وشيوخه بالحضور لمبايعة الأمير ممن لم يحضر ما تقدم، فأجابه كلهم إلا السيد محمد بن سيدي عربي، فإنه امتنع أولاً، وكتب مكتوباً له يعطي فحواه؛ أنه لم ينشرح لما اتفق عليه أهل الإقليم، ثم إنه تروّى أياماً، ثم وفد في جملة من وفد من رؤساء الجهات، وذلك شهر رمضان، وبايعوه على الجهاد والسمع والطاعة، وعلى أن يقيم فيهم الحدود الشرعية، ويسير فيهم سيرة عمرية، وقد حضر منذ المشهد الثاني جم غفير وجمع كثير، وبعد بيعتهم أطلقت المدافع من أسوار المدينة من الطابيات.

---

(1) هم المسلمون المؤمنون بوحدانية الله عزّ وجل.

وكتبت لـه البيعـة الكـبرى داخـل البلـد، وبهـا تمـت لـه الإمارة على جميـع الإقلـيم، وقـد ذكـر أخـوه السـيد أحمـد، حـرس المـولى جانبـه، في كتابـه نصـوص المبايعـات التـي كتبهـا أجـلاء فضلاء ذلك القطر، طويتُ نقلها هنا رَوْماً للاختصار.

فأصـبح الأمـير وقـد تمـت البيعـة بـذلك المجمـع العظـيم والاتفـاق العمـيم، وثبتـت لـه الإمـارة والسـلطنة عـلى ذلـك الإقليم بجميعـه بـلا معـارض، وخضـعت لـه جميـع المـدن البريـة في جميع ذلك الإقليم بـلا أدنـى كلفـة سـوى مدينـة تلمسـان، فإنـه عارضـه مـن كـان فيهـا مـن الأتـراك وأولادهـم ولم يخضـعوا لـه، فحـاربهم واسـتعان علـيهم بمـن فيهـا مـن العـرب الحضـريين، ففتحها وخضع له من فيها من الأتراك.

وبخضـوع تلمسـان لـه وتملكـه لهـا تمـت لـه الإمـارة، وثبتت لـه المملكـة والسـلطنة عـلى الإقلـيم، إذ هـي أشـهر مدنـه، وقـد كانـت داراً للملـك مـن قـديم الزمـان، وكانـت لـه صـولة ودولـة أيـام ملوكهـا بنـي زيـان، وقـد خُطـب باسـم الأمـير عـلى جميـع منـابر ذلـك الإقلـيم ومدنـه البريـة، وهـي مليانـة والمديـة والبليـدة والقليعـة ومعسـكر ومازونـة وتـاهرت وبسـكرة

والأغـواط والـزاب وندرومـة وغيرهـا، ولم يبـق مـن مـدن ذلـك الإقلـيم الأوسـط سـوى الأسـاكل والمـراسي التـي دخلتهـا فرنسـا[1] قبـل توليتـه وهـي القالـة وبونـه وجلجـل وبجايـة وشرشـار[2] ومسـتغانم ووهـران والجزائـر وسـوى قسـنطينة[3] فـإن الحـاج أحمـد بـاي كـان اسـتقل فيهـا بمـن كـان فيهـا مـن الأتـراك، وبقيـت تحتـه مـع جهاتهـا الشـرقية، كـما كانـت قبـل استيلاء الفرنسـيين[4] عـلى الجزائـر، فإنـه كـان واليـاً عليهـا وعـلى إيالتهـا إلا أن الأمـر لم يـتم لـه إلا مـدة يسـيرة وأخـذتها[5] منـه الدولة المذكورة، ثم استولى الأمير على بقية إيالتها الغربية.

ثـم إن الأمـير بعـد اسـتقرار الإمـارة إليـه جعـل حـدوداً بينـه وبـين الفرنسـية مـن جهـة الأسـاكل والمـراسي التـي تحـت مملكتها وجعلت قنصـلاً عنـده مـن قبلهـا أسـكنته مدينـة معسـكر

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) يقصد بها شرشال.

(3) في الأصل: (قسمطينة).

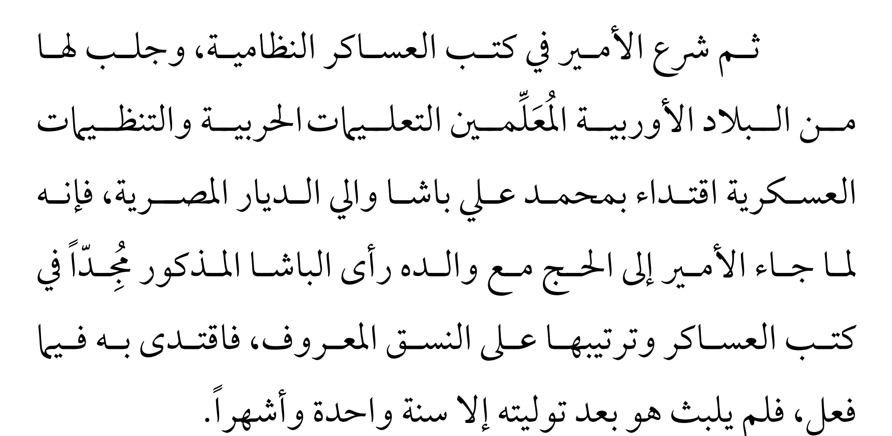
(4) في الأصل: (فرنسوية).

(5) في الأصل: (أخذها).

اسـمه (دومـاص) بـدلاً عـن قنصـلها الأول الـذي قتـل نفسـه وكتب بخطه: لا تتهمـوا أحـداً بقـتلي، فأنـا الـذي فعلـت بنفسـي ما فعلت.

وجعـل الأمـير وكـيلاً عنـدهم أسـكنه مدينـة وهـران، وكان بواسطته يشتري له جميع ما يلزمه من الأسلحة.

تنظيم العساكر وشراء الأسلحة 

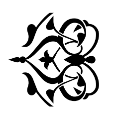


ثـم شرع الأمـير في كتـب العسـاكر النظاميـة، وجلـب لهـا مـن الـبلاد الأوربيـة المُعَلِّمـين التعلـيمات الحربيـة والتنظـيمات العسكرية اقتـداء بمحمـد عـلي باشـا والي الـديار المصـرية، فإنـه لمـا جـاء الأمـير إلى الحـج مـع والـده رأى الباشـا المـذكور مُجِـدّاً في كتـب العسـاكر وترتيبهـا عـلى النسـق المعـروف، فاقتـدى بـه فـيما فعل، فلم يلبث هو بعد توليته إلا سنة واحدة وأشهراً.

وشرع في كتبهـا متبعـاً نسـق المـذكور وطريقتـه، ولم يكـن إلا مـدة يسـيرة حتـى أصـبحت دولتـه كأنهـا دولـة قديمـة ثابتـة القوائم مؤسسة الأركان والدعائم.



إنشاء مصنع للأسلحة



وفي سنة 1253هـ اتخذ فابركيا لعمل السلاح والبواريد، وجلب آلتها وصناعتها ومعلميها من الدولة الفرنسية أيام مهادنته معها بدراهم بليغة على مدة سنة كاملة، وجعل تحت أولئك المعلمين صناعاً وفَعَلَةً من أهل الإقليم هددهم بالقتل إن لم يتقنوا الصنعة قبل تمام السنة، ثم ما مضت إلا مدة يسيرة حتى أتقنوا الصنعة، ومهروا فيها على أحسن ما ينبغي، لما سمعوه منه من التهديد بالقتل وشديد الإهانة، ثم رد معلميها الإفرنجيين إلى بلادهم قبل تمام السنة، حيث لا لزوم في بقائهم، وبعد ذلك شرع في اتخاذ فابريكا[1] أخرى لعمل المدافع الكبيرة إلا أنها لم تتم.

فأصبح الإقليم بعد توليته مجتمع الكلمة مبتهجاً، وارتاح الأهالي مما كانوا فيه من العذاب الأليم بسبب القتل والنهب والهرج والمرج وتشويش الأفكار والتعدي على الضعفاء والمساكين، وأمنت السبل، وانكسرت شوكة

---

(1) من صناعة أو إنتاج.

المتغلبين من جبابرة الإقليم، وخمدت نار الحرب التي كانت بين الأهالي، واستراح الناس أيام دولته راحة عظيمة، وكانت أيامه أيام خصب ورخاء وسعة لسيرته سيرة المتقدمين من الملوك العدل، فإنه في أيام دولته لم يأخذ من الرعية إلا الزكاة المشروعة، وبذلك عمت الراحة الأهالي جميعاً.

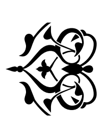


مكاتبة ملك مراكش

وبعد توطيد البلاد إليه واجتماع قلوب الأهالي جميعاً عليه كاتب ملك مراكش السلطان عبد الرحمن، وكانت بينهما مواصلات عظيمة ومكاتبات تقتضي كمال المحبة والمودة وتمام المواصلة، وقد بعث الأمير إليه أول مرة أخاه العلامة السيد محمد السعيد، ومعه شيخه العلامة السيد مصطفى ابن عبد الحليم المستغانمي في جملة من أكابر الإقليم مستصحباً معه بعض التحف الإفرنجية لتتميم ربط المواصلة بينهما والمودة، وأرسل إليه ثانياً عمه العلامة الأفخم السيد علي بن أبي طالب في وفد من رؤساء الإقليم ووجوهه، فأكرمت الدولة المراكشية نُزُلَهم، وأحسنت إليهم كل الإحسان، ثم

بعد ذلك بمدة أرسل إليه شيخَ الجماعة ومقدمها في وقته العلامة المتفنن السيد ابن عبدالله الملقب بسقاط قاضي مدينة معسكر ومعه جمع من الوجوه، وبسبب تلك المواصلات كان يشتري له وكلاؤه الذين هم بتلك الدولة ما يلزم من الكسوة والآلات والسروج والبارود وجميع ما تحتاجه العسكرية من الأشياء، واتصلت تلك المودة بينهما، ثم انقطعت بما ستطلع عليه بعد.

الاحتفال بالمولد الشريف وتجارب على القتال



وقد كان الأمير أيام ولايته يحتفل احتفالاً عظيماً للمولد النبوي، ويخرج جميع عسكره من البلد إلى أرض فيحاء متسعة، ويجعلون بها شبه محاربة، فيقف عسكره في ذلك المتسع، ويجعل شبه قلعة مربعة الأركان من العسكر، ويكون في وسط تلك القلعة ما يحتاجه من الذخائر العسكرية، وتجعل في كل ركن من أركان تلك القلعة مدفعاً أو مدفعية، ثم يحيط بتلك القلعة خيول من خيالته النظامية أو من الأهالي.

ثـم تخـرج مـن القلعـة شرذمـة لتـدفع تلـك الخيـول، وتزيحهـا عـن محالهـا، وتبعـد بمقـدار عشـر دقـائق عـن القلعـة، وتطلـق البـارود عـلى تلـك الجمـوع المتراكمـة المتقابلـة لهـا، ثـم تهجـم عليهـا تلـك الخيـول هجمـة واحـدة، وتطلـق النـيران الباروديـة، فـإذا تكـاثرت عليهـا رجعـت تلـك الشرـذمة منهزمـة ومتوليـة إلى وراء، وتطلـق البـارود عـلى الخيـول إلى أن تـدخل تلـك القلعـة فتلتـئم معهـا، وتصـير كأنهـا لم تخـرج منهـا ولا انفصلت عنها.

ثـم تطلـق تلـك القلعـة النـيران المتتابعـة عـلى الخيـول، وتضـربها بمـدفع أو مـدفعين مـن ذلـك الـركن، فترجـع الخيـول عنها.

ثـم تخـرج طائفـة أخـرى مِـنْ جهـة غـير تلـك الجهـة، وتفعـل مثـل الأولى، ثـم تهجـم الخيـول التـي بمقابلتهـا بقوتهـا، وتفعـل كـما تقـدم، ثـم ترجـع متوليـة القهقـرى طالبـة للتحصـن بتلـك القلعـة مـع عـدم فـترة الضـرب عنهـا، فـإذا وصـلت إلى القلعـة التحمـت معهـا، وصـارت بحيـث يراهـا الرائـي كأنهـا لم تخرج منها أصلاً ولم تبارحها.

ثم تشتعل النيران المتتابعة، فترجع الخيول، وتطلق عليها الصواعق المدفعية من ذلك الركن، وهكذا تفعل من جهاتها الأربع، وتكون تلك الحرب بمقدار ساعتين أو ما يقرب منهما، فيرى من يشاهد ذلك أفعالاً تسره، ويبتهج منها خاطره، وكذلك كان يفعل في جميع الأعياد بعد الصلاة.

مدة تولية الأمير

وكانت مدة تولية الأمير سبعة عشر عاماً، منها اثنتا عشرة كانت على غاية ما يكون من الراحة والسرور والبسط، وإن حصل فيها بعض المحاربة فليست بمكدرة كل التكدير ولا مشوشة للأهالي، إذ كانت تشتعل فيها نار الحرب ثم تنطفئ سريعاً لعدم توجه الفرنسية فيها لمسلك بقية الإقليم، وأما بقية تلك الأعوام فكانت على غاية ما يكون من الشدة والعذاب الأليم، إذ الكروب كانت فيها متوالية والحروب متتابعة، فقد وقعت فيها بين الأمير وبينهم حروب متصلة متعددة لها أيام وليال مشهورة، ولنذكر أول حرب منها لشهرتها عند الخاص والعام، وإن كانت هذه المحاربة

وقعت قبل أن تعترف الدولة الفرنسية للأمير بالإمارة على الإقليم، وتسطر أمره في دفاترها، وإن كانت جعلت وكيلاً عنده من قبلها، فإنما ذلك لأجل أن تطلع بسببه على أشياء وتهتدي به إلى بعض المصالح تظهر لها نتيجتها فيما بعد، لا لكونه معدوداً عندها وقتئذ من الملوك ذوي المقاطعات، إذ ما ثبتت له الإمارة عندها ولا اعترفت له بها إلا بعد هذه الحرب بمدة كما ستطلع عليه وبعثِه إليه الحاج المولود بن عراش سفيراً إلى باريز عاصمة ملكهم، وهذه الحرب هي التي وقعت بزبوج مولى إسماعيل، وهي أول حرب وقعت بينهما.

فبينما الأمير على غاية ما يكون من الاطمئنان والراحة، وإذا بمكتوب ورد عليه من بعض مسلمي الجزائر يتضمن أن الجنرال تيريزي (تيريزل) متوجه لقتالك، فكن على أهبة وحذر، ولا سبب إذ ذاك يقتضي الحرب أو يفضي إليها، غير أن المكتوب تأخر وصوله إليه، ولذلك لم يتأهب حسبما ينبغي، وكان بين مصدق ومكذب لعدم السبب، فتأهب بعض التأهب، وجمع أمره بعض الجمع، وكان دوماص قنصل دولة فرنسة عنده بمعسكر ووكيله هو

بوهران، ولم يبديا له شيئاً مما يقتضي قطع المواصلة أو يوجب تكديراً أو حرباً، ثم إن سعادته لم يلبث إلا مدة يسيرة بعد ذلك، وإذا بمخبر ورد عليه من رئيس العسكر المحافظين على الحدود بأن العساكر الفرنسية انفصلت عن مدينة وهران متوجهة للقتال حسبما يظهر من سيرها، فكن على أهبة.

جمع الأمير عسكره الذي هو بمدينة معسكر، وبعث للعرب التي كانت حواليها من الحشم وغيرهم بالحضور والتأهب للجهاد والذب عن الوطن والبلاد، والمحاماة عن الحريم والأولاد، وبعث وقتئذ ساعياً لعسكره الذي هو بمدينة تلمسان تحت قيادة خليفته السيد محمد البوحميدي بأن يبعث به سريعاً من غير تراخٍ ولا توانٍ، ويحملونه على الإبل والبغال، ويأتون بهم كأنهم طائرون، وخرج بمن معه من الجند وبما تجمع من الأهالي ومن العرب متوجهاً نحو مدينة وهران، فالتقى الجمعان على غير ميعاد، ونشبت النيران الحربية، وحمي الوطيس، واختلط الجمعان، وبطل ضرب البارود، ولم يبق إلا بالسيوف والنصال التي تجعل على رأس البواريد شبه النصال، فمات جميع من خرج به الأمير من

عسكره المنظم المشاة، وأطلقت الجيوش الفرنسية[1] الصواعق النيرانية من مدافعها على الخيول التي بقيت مع الأمير، وعلى جموع المجاهدين، فتشتت وانهزمت لتتابع ضرب المدافع عليها، ولم يبق من الجموع إلا القليل، وقد خلت الطريق ولم يبق معارض، وتقدمت الجيوش الفرنسية ومشت مقدار ساعتين أو ما يقرب منها، ثم نزلتْ وخيّمتْ، وتقدمها وسيرها إنما كان لإظهار القوة، وإلا فإنها تكبدت خسائر جمّة.

ولما خيّمت نزل الأمير بمن بقي معه من الخيول بالقرب منها في شرذمة قليلة جداً بحيث لا تقدر على أدنى معارضة، ولا تملك دفاعاً ولا مقاومة يسيرة، ثم في الساعة الثالثة من تلك الليلة وردت على الأمير خيول كثيرة من قبيلة فليتة، فحصل لجماعة الأمير بعض الاطمئنان بها، وما عسى تفيد الخيول ولو بلغت ما بلغت في الكثرة مع العساكر النظامية المقوَّاة بالمدافع، ثم قبيل الصبح وصلت العساكر من تلمسان التي كان بعث إليها بالحضور، فَتَعَضَّدَتْ قوته بها،

(1) في الأصل: (فرنسوية).

واشتد ساعده بوصولها، وبوقتها ألقى الله الرعب في قلوب الجيوش الفرنسية، فكرّت راجعة إلى وراء على طريقها التي جاءت منه، مع أنها لو جدَّت بالأمس كل الجد لكانت وصلت إلى مدينة معسكر ودخلتها بلا معارض وتحصنت فيها، إذ لا مدافع لها قبل مجيء ذلك العسكر، والأهالي لا تقدر على دفاع العسكر النظامي وترجيعه.

ثم لما رأى الناس رجوعها وتوليها القهقرى مع حضور العساكر التلمسانية تقوت قلوب الأهالي، ورجع من كان خرّ بالأمس إلا القليل ثم انتشبت النيران الحربية بين الفريقين، وقد اجتمعت جموع بليغة من الأهالي، واحتاطت بهم فحمي حينئذ الوطيس واكفهرَّ وجه النهار، وأطلقت النيران بالأشجار الملتفة بذلك المحل والحشيش أمام الجيوش الفرنسية[1] وعن اليمين والشمال، وأكثرت من الصياح واللغط والضجيج مع تتابع الصواعق من مدافع الجهتين، فوهنت العساكر الفرنسية، وانكسرت شوكتها، وفشلت كل الفشل، وحصل فيها الضعف والخلل ولاسيما حيث أخذ

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

رئـيس الطبجيــة بعــض المــدافع، وجعلهــا أمــامهم عــلى محــل مرتفع، ثم أرسل علـيهم نيرانهـا المتتابعـة، وكـان حاذقـاً مـاهراً في كيفيــة إرســالها علــيهم، فــدخلهم الفشــل الكــلي، وتركــوا جميــع ذخــائرهم وبعــض المــدافع ولم يبقــوا بأيــديهم إلا مــا لا بــد منــه، وتوجهــوا قاصــدين البحــر طلبــاً للتحصــن بــه والــتخلص مــن الهــلاك، إذ لم يبــق مــن جيشــهم في ذلــك النهــار الهائــل إلا طائفــة تجمعت على من بقـي مـن الرؤسـاء، واتخـذت شـبه قلعـة مرتفعـة الأركــان، ومشــت نحــو البحــر، إذ رأت فيــه بعــض المراكــب مــن مراكبها كانت تجول فيه.

وكانــت [العســاكر الفرنســية] قــد أيســت مــن النجــاة، فإنها رفعـت علامـة التسـليم وأشـهرتها مـرتين، ولم يتحصـل مـن ذلك عـلى طائـل لعـدم فـترة البـارود مـن تلـك الجمـوع المتشـكلة مــن عشــائر العــرب وأخلاطهــا، حيــث إنهــا لا تفهــم علامــة التســليم أو إنهــا فهمــت وقصــدت إعــدامهم بالكليــة، فحينئــذ تحققوا بالهلاك، وتيقنوا أن لا نجاة.

وأما عسـكر الأمـير فظـن أن تلـك العلامـة مجـرد خديعـة ومكر، ثم إن مـا بقـي مـن الجنـد الفرنسـوي لمـا وصـل إلى البحـر

قربـت مـن تلـك المراكـب وصـادفتهم عـلى سـبيل الاتفـاق، ووجـدتهم عـلى أسـوأ حـال، فركبوهـا ونجـوا، ولولاهـا لاستؤصلوا جميعـاً وقُطِـعَ دَابِـرُهم، وفي ذلـك النهـار يقـول عـم الأمير من قصيدة:

قلبنـا لهـم ظهـر المِجـنِّ عشـيةً

صَبَرْنا بها أَلْفـاً ونِصْـفَاً مِـنَ الألـفِ

وهـذا القـدر هـو الـذي تركـوه ملقـى عـلى وجـه الأرض في مَقْتَلَـه اليـوم الثـاني مـا عـدا مـن مـات مـنهم في مّقْتَلَـةِ اليـوم الأول ووراه، ولم يظهـر لـه أثـر، خشـية أن تحرقـه الأعـراب، وذلك العدد يحكى أنه يقرب من التسعمئة ما عدا المجاريح.

وقـد مـات في اليـوم الثـاني عـدة مـن رؤسـاء عسـكر الأمـير وكثـير مـن مشـايخ العـرب، وفي اليـوم الأول استشـهد جميع عسـكر الأمـير الـذي خـرج بـه مـن مدينـة معسـكر ومعهـم اثنا عشـر ضـابطاً كبـيراً مـن الـذين يشـار إلـيهم، ويتأسـف عـلى فراقهم التأسف الكلي.

وقد أُسر من الجنـد الفرنسـي جمـع غفـير، إذ كـان الأمـير

وعد كل من جاء بواحد من عسكرهم حياً أو برأس ميت فإنه يأخذ عشر ريالات، فاقتحمت الأعراب لذلك شدائد المنية، وخاضت بحار الموت بهمة قوية طلباً لحصول الموعود به، وجاءت بعدد كثير، فوفى الأمير لجميعهم بما وعد وأنجز، مع ضعف خزينته وقلة ما بيده.

وكان لهذه الواقعة موقع عظيم في قلوب الإفرنج وغيرهم حتى إن الأعراب اتخذتها تاريخاً لأولادهم، ومن وقتها اعتبرت الدولة الفرنسية الأمير كل الاعتبار، وعظم في عينها، وعرفت قوة عزمه وشدة حزمه، وتحققت شوكته ونفوذ أمره، وقد كانت جاءته على غفلة لتنال منه مطلوبها على غرة، فرجع سهمها عليها.

وبعد هذه الواقعة التي ملأ السهل صرعاها استعظمت فرنسا الأمير، وعرفت حقه، وصارت لا تبادره بالحرب ولا تنشب بينهما إلا بعد المخابرة ونقض العهد، على أن كثيراً من المرات كان يأتي نقض المهادنة والصلح من قبله.

وقد استحقر هذا القدر من الموتى في تلك المعركة المتقدمة من لم يعرف حق القتلى الآدميين ولم يحضر لمواقع

النزال، مع أن غاية ما في الحروب الوقتية العظيمة هذا القدر أو ما يقرب منه، ثم تنهزم الجهة المغلوبة، وكون اليوم الواحد يموت فيه عشرة آلاف مثلاً أو ما يقرب منها غير مقبول عند أولي التجربة العارفين بالمواقع في جميع هذه الحروب الواقعة الآن، وإن ذكر فإنما هو على درجة المبالغة، نعم في أيام متعددة يصح ما ذكر وتصدقه العقول الكاملة، وسبب ذلك كون حروبنا الوقتية نارية، وهي لا يقتل فيها أكثر من ألف فأقل، ثم تنهزم الجهة المكسورة، وترتفع الحرب، وهذا في الحرب التي بلغت حدها، وإلا فلا يصل لهذا المقدار إلا القليل من الحروب.

الصلح بين الأمير وفرنسة ثم نقضه



ثم بعد تلك المحاربة المتقدمة وقع الصلح بين الأمير وبين الدولة الفرنسية، وتمت المهادنة سنين ثم انتقضت، وسبب نقضها هو أن الدولة الفرنسية كانت أخذت قسنطينة من يد الحاج أحمد باي، خرجت إليها من بونة، وانكسرت أول مرة، ثم خرجت إليها من طريقها مرة ثانية بقوة عظيمة،

يُقال: إن عسكرها كان ستين ألفاً ما بين راكب وماشٍ، فملكَتْها عنوة، وسبب انكسارها في المرة الأولى هو أنها لما احتاطت الجيوش الفرنسية بها، وصارت تجعل لأنفسها الاستحكامات صار رئيسها يجول بين صفوفها، وإذ بكورة من مدافع سور البلد أطلقت على ذلك الرئيس، ففرقته شذر مذر، ثم انتشبت الحرب بين أهالي البلد وبينها، ولموت ذلك الرئيس وشدة البرد انكسرت الجيوش الفرنسية، وخسرت خسارة عظيمة، وكان بين المحاربة الأولى والثانية ستة أشهر، ولم يحضر واليها الحاج أحمد باي لواحدة منهما، فإنه لخوفه من الأهالي بسبب كثرة ظلمه لهم الظلم التام، كان كلما توجهت الدولة الفرنسية لأخذها يخرج بمن كان معه من الأتراك إلى محل بعيد منها، ثم يراقبها منتظراً ما يصير إليه حالها، وإنما كان ذلك الذي يحث الأهالي على الدفع على الأهل والأولاد والوطن قائد البلد ابن البجاوي رحمه الله إلى أن أصيب وخرَّ ميتاً، فدخلوها بعد محاصرتهم لها ثمانية أيام، وكانوا حاولوا أن يدخلوها من الباب، فما قدروا بعد أن ضربوا الباب بالمدفع، وانفتح المصراعان لهم فهجموا مرات متعددة،

ورجعوا خائبين، وأغلق الباب وأعيد كما كان عليه، فلما أيسوا من دخولها منه لشدة تحصنه بالطابيات التي كانت فوقه تركوا الباب ونصبوا عدة مدافع تجاه السور من محل بعيد عن الباب ليلاً، وأضاؤوا عليه شعلة كهرَبائية[1]، ثم تتابعت صواعقهم على ذلك المحل، ففتحوا فيه باباً، ثم اقتحمت عساكرهم على ذلك المحل، وهجمت بقوتها عليه فدخلت، ثم صارت المقاتلة بينهم وبين الأهالي بالأزقة والشوارع مدة من الزمان، ثم وقع التسليم والإعلان بالأمان.

ولما دخلوها [أي الفرنسيون] فرَّ الكثير من الرجال والنساء، ونزلوا من كاف اشكورة بالحبال، خوفاً من السبي، أو إطلاق سبيل الفاحشة فيهم، وكان النزول منه صعباً جداً ومخاطرة عظيمة، ولكنَّ شدَّة الخوف أَلجأتْهم إلى ذلك النزول من تلك المهواة.

وبعد أن ثبتت قدم الفرنسية في قسنطينة[2] رام بعض أولاد ملكهم فيليب أن يذهب إليها، فخرج من الجزائر

(1) في الأصل: (كرهبائية).

(2) في الأصل: (قسمطينة).

متوجهاً نحوها على طريق البر، ومشى في أراضي الأمير ورعيته، ولم يستأذنه في ذلك، فلما سمع به امتلأ غيظاً وغضب الغضب الشديد على العسس الذين كانوا حوالي الطريق حيث إنهم لم يشهروا عليه السلاح، ثم كتب مكتوباً للفرنسيين[1] يقبّح منهم ذلك الفعل، فأجابوه: حيث إن الولد صغير السن وقد اختار ذلك، وحتم أن يمشي في ذلك الوقت، ولا سعة فيه للإخبار مع تحققنا أن ذلك الأمر لا يشق عليك، حيث لا ضرر فيه لا عليك ولا على الأهالي، فالخطب سهل.

فلم يرض [الأمير] الجواب، ونقض المهادنة التي كانت بينهما، وانتشبت الحرب، فكانت سبباً لأخذهم تلمسان منه أول مرة، ثم احتاط فيها منهم[2]، وضيق عليهم غاية الضيق إلى أن خرجوا منها صلحاً، بسبب ما لحقهم فيها من الضنك والشدة وانقطاع المؤونة عنهم، فلم يتيسر لهم البقاء بها.

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) في الأصل: (فيهم)، والأصح للمعنى ما ذكر أعلاه.

ثم انعقد الصلح بينهما سنين، وفي أثناء هذه المدة بعث الأمير سفيره الحاج المولود بن عرَّاش إلى باريز عاصمة ملكهم، وقاعدة سلطنتهم، واجتمع مع الملك فيليب، وجعل له ضيافة أحضر إليها جملة من رؤساء دولته ووزرائه، وقال له: نحن نريد دوام المواصلة بيننا وبينكم وتمام الموادة، ولكن لا يتم ذلك إلا بشرط أن يكون الحد الفاصل بين رعيتنا ورعيتكم النهر الفلاني الذي هو بالأرض الفلانية، وذكر بعده شروطاً أخر فقال له: أما ما ذكرته من الشروط غير المذكورة فإنني أقبلها وأصدّق عليها الآن، وأما الأول فموقوف على تصديق الأمير، وإنني قبلته إن قبله ورضي به، وأبقوا ذلك السفير عندهم بباريز ثلاثة أشهر، وقد أطلعوه في تلك المدة على جميع عَددهم وعُددهم ترهيباً له، وإظهاراً لقوتهم، فإنه ما من يوم من الأيام إلا ويمشي أمام المنزل الذي هو فيه جيش عظيم غير الجيش الذي كان رآه بالأمس.

ومن ذلك الوقت اعترفت الدولة الفرنسية للأمير بالإمارة على إقليم الجزائر ولقبته بها، وعدّوه من جملة الملوك ذوي المقاطعات، فلما جاء ذلك السفير أخبر الأمير بما قال له

الملك، فقال له: أنا لا أرضى بذلك، ولا أسمح لهم بشيء من بلادي ولو جزئياً، فالحمد لله على عدم تصديقك على ذلك، ولو أدى إلى المحاربة مع أن الذي طلبه مقدار فرسخين ونصف لا غير. فقال له: نحن لا نقدر على محاربتهم أصلاً على ما اطلعت عليه من زيادة العَدَدِ والعُدَد التي عندهم وشاهدته من وفور خزائنهم مع ضعفنا وقلة عددنا، فنحن لا نقدر عليهم!!

فقال له: إن الوهم استولى عليك ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية249].

ثم قال له بعض الحاضرين لتلك المحاورة: وما يدريك أن تلك الجيوش التي كانت تمر بمرأى منك تكون الثانية هي الأولى، وإنما يغيرون هيئتها ولباسها، فسكت، ثم بعد مجيء السفير بمدة وقع التقاطع وسببه ما تقدم، وليته سمح لهم بعشرة فراسخ. ثم بعد ذلك عظم البلاء واتصلت الحروب، وتوالت الشدائد على ذلك الإقليم، ولم تطب الراحة لأهله مدة خمس سنوات متوالية.



حرب ثنية مزاية

ولنذكر حرب ثنية مزاية من أراضي المدية، وكان حضرها الأمير وخليفته السيد محمد بن عَلَّال، وخليفته الثاني السيد الحاج محمد البركاني، وكانت ضباط العساكر مجتمعة فيها، وبسبب ذلك الاجتماع حصلت من العساكر همة قوية وشجاعة كلية، إذ قد حضرت تلك النهار بقلوب صخرية، وأفئدة حجرية، مع أن عددها كان لا يزيد على ستة آلاف، ما عدا جموع المتطوعة من الأهالي، وفعلت ما لا يصدر إلا من نحو الثلاثين ألفاً فأكثر، والأمير كان من عادته أنه لا يجمع في جميع مواقعه عساكره كلها، ويحارب بها خوفاً عليها من أن تُفْنيهَا الحرب لقلتها، بل كان عسكره دائماً متفرقاً على خلفائه، وهم السيد محمد بن علال، والسيد محمد البوحميدي، والسيد الحاج محمد البركاني، والسيد محمد بن سيدي عقبة، وذلك لأن الجيوش الفرنسية[1] كانت تخرج متفرقة من جهات شتى لتعظم المكايدة بذلك، وليتفاقم الأمر

---

(1) في الأصل: (الفرنسوية).

على الأمير، وبسبب ذلك كان يقابل هو جيشاً، وكل واحد من خلفائه المذكورين يقابل جيشاً من جيوشها، ومع كل واحد منهم قطعة من العسكر النظامي وجموع من الأهالي بمقدار عشرة آلاف أو أقل أو أكثر.

وسعادة الأمير لو جمع عسكره وحارب بهم لأفنتهم الحرب في مقتلة أو مقتلتين، واضمحل أمره في مدة يسيرة لقلة عَدده وعُدده، إذ جميع عسكره الذي كان مقيداً في الدفاتر، وله معاش اثنا عشر ألفاً منتظمة الانتظام الموجود بين الدول، منهم ثمانية آلاف مشاة وأربعة آلاف خيالة، وما كان تقوية سوادها إلا بجموع الأهالي المتطوعة، ولم يحصل في جميع حروب الأمير ومواقعه مع كثرتها وتعددها ما حصل في المقتلة الأولى من القتل، وفي مقتلة ثنية مزاية.

وأما حرب جامع الغزاة[1] فإن العساكر الفرنسية كانت فيها قليلة جداً، ولذلك استأصلهم الأمير جملة واحدة في مدة يسيرة قتلاً وأسراً، ولم ينجُ منهم أحد، والذي أوجب ثبات عسكر الأمير الثبات

---

(1) وردت في تحفة الزائر (الغزوات).

الكـلي في مقتلـة ثنيـة مزايـة المتقدمـة هـو اتخـاذهم التحصـينات اللازمـة، فإن الجيـوش الفرنسـية جـاءت قاصـدة دخـول المديـة، فسـبقتها عسـاكر الأمـير، وجعلـت أمامهـا بـالطريق اسـتحكامات وثيقـة، ثـم انتشـبت الحـرب بـين الفـريقين، وهجمـت العسـاكر الفرنسـية[1] المـرة بعـد المـرة عـلى عسـاكر الأمـير رومـاً أن تخرجهـا مـن الاسـتحكامات، وفي كـل هجـوم ترجـع إلى وراء متوليـة القهقـرى عـن عـدد بليـغ مـن قـتلى وجرحـى حتـى صـارت الأرض مزروعـة بجثـث الآدميـين ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [سورة الحاقة، الآية: 7].

ومـن العجـب أنهـم وجـدوا في هـذه المقتلـة جملـة مـن العسـاكر المصـرية مـع الجيـوش الفرنسـية، وكلهـا مـن الجيـوش السـودانية، ولم يتحقـق سـبب حضـورهم إلى الآن، ويقـال: إن محمـد عـلي باشـا والي مصـر أَمَـدَّهم بتلـك الطائفـة، وهـو ممـا يستبعد، والله أعلم.

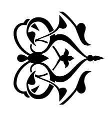
ثـم لمـا اشـتدت النـيران ذلـك اليـوم ولم تسـتفد الجيـوش الفرنسـية مـن هجوماتهـا شـيئاً أمـر ابـن الملـك فيليـب بتقـديم

(1) في الأصل: (فرنسوية).

طائفة من عسكرهم المسمى بالزوَّاف، وكان بعيداً عن معمعة القتال ودقوا عليه الموسيقا الكبيرة لتعظم عند ذلك نخوتهم، فجاؤوا وحملوا بجملتهم على عسكر الأمير الذي كان بالاستحكامات بقوة عظيمة، فأخرجوهم منها، وزحزحوهم عن أماكنهم بعد أن مات منهم في هذا الهجوم خلق كثير، وتكبدوا بسبب هذا الهجوم المتوالي خساراتٍ جمة، وجُرح ابن الملك فيليب في رجله، ومات بسبب ذلك الجرح، وإن أشاعوا أن الكروسة هي التي مرت على رجله، والصحيح أنه أصيب بالرصاص، وحمل ومات، ثم انفصل النهار عن عدد بليغ من قتيل وجريح، وناهيك بمحاربة يموت فيها ابن الملك. وفي اليوم الثالث بالقرب من ذلك المحل انتشبت الحرب بين الفريقين، واشتدت وبقيت إلى أن تولى النهار، ثم انفصل الجمعان، وكانت الغَلبة لعساكر الأمير عليهم.

والحاصل أن حروب الأمير كثيرة، وكذا غزواته على الأعراب التي أعانتهم [أي الفرنسيين] عليه، وجدَّت معهم كل الجد، كثيرة أيضاً، يحتمل جميعُها مجلداً كبيراً.

وسبب إعانة الأعراب لهم [أي الفرنساوية]؛ أن الدولة الفرنسية لما تحققت صلابة الأمير بعدم استعماله السياسة معها والمداهنة شرعت في جلب الأعراب ببذل الدراهم البليغة لكبرائها حتى استجلبتهم بذلك كل الجلب، وبسبب ذلك بذلوا مجهودهم معها، وحيَّروا الأمير وسعوا في تأخر أمره، ولا سيما في آخر الأمر، فإن من الأمور المحققة؛ أن الدولة الفرنسية لو لم تستجلب قلوب الأعراب بالإحسان الذي تقتضيه السياسة، واستعجالها الأمير بالمحاربة قبل اشتداد عضده وتقويته بتكثير العساكر، ما قدرت عليه أصلاً، ولكنها لما رأت شدة صلابته التي تقتضيها خاصية الإقليم مع جده كل الجد في كتب الجيوش، والتفاته كل الالتفات للأمور العسكرية بهمة قوية تحققت بأنها إن تركته حتى يتقوى عضده، ويكتب خمسين ألفاً من أهل هذا الإقليم الذي يعد كلُّ واحد منهم بعشرة من غيرهم كما هو مشاهد من عسكره، فلا يتيسر لها أخذ الإقليم أصلاً، وقد كانت نية الأمير أن يكتب ذلك القدر من أهل ذلك الإقليم كما صرح بذلك بلسانه.



فرنسا تنقض المعاهدة



وبسبب ذلك بادرته بالمحاربة قبل أن يشتد ساعده بما ذكرنا، ونقضت المعاهدة التي كانت بينها وبينه، وجيشت جيوشاً بليغة وخرجت بها من مواضع شتى متعللة بعدم رضا الأمير بتغيير الحد الذي كان المَلِكُ [قد طلبه][1] من سفيره كما قدمنا، وحينئذ توالت الحروب على أعلى ذلك الإقليم، وتتابعت النكبات، ودامت البليات إلى أن استولوا على ذلك الإقليم بجميعه مدينة بعد مدينة، وجبلاً بعد جبلٍ بعد معاناة شدة حروب ومقاساة ضنكٍ وكروبٍ إلا أن الأمير لم يتم لهم إلا بعد أن ملكوا تلمسان، لأنهم قبل استيلائهم عليها كانوا كلما أخذوا بلداً من البلدان يحاط بهم من جميع الجهات، تبقى جيوشهم محصورة بها على غاية ما يكون من الضيق، ولا تصل إليهم المؤونة إلا بشق الأنفس وأوامر الأمير ونواهيه سارية في الإقليم بجميعه مع كون المدن كلها بأيديهم إلا مدينة تلمسان وجميع المدن عليهم مغلقة الأبواب، وإن وقع القتال فإنما يقع

---

(1) زيادة من المدقق للإيضاح.

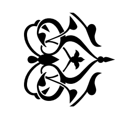
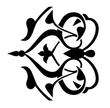
في طاقات بالأسوار، ولا يدخل عليهم أحد، ولا يتجاوزون أسوار المدن التي هم بها، ودام هذا الحال معهم مدة وأعينُ جميع الرعايات، وأهل الإقليم طامحة إلى تلمسان ماذا تصير عاقبة أمرها. ثم إن خليفة الأمير السيد محمد البوحميدي كان والياً عليها، ومشدداً على أهلها، ومنغصاً عليهم وقتهم، وكانت تكررت شكاياتهم عليه للأمير، فلم يسمع لهم فيه ولم يُنَفس كربهم بعزله لكونه من خواص أحبابه، ومن عادته أنه لا يسمع في ولاته عَذل أحد، ويقول: لا يمكنني أن أعثر على من يرتضيه الجميع، ولا يشتكي منه أحد، وربما لو عزلت هذا لكان من يأتي بعده أدهى وأمر، فأضمرت تلك البلد المذكورة وما حولها الشر، وانتظرت الفرصة.



استيلاء الفرنسيين على تلمسان

ثم إن الدولة توجهت إليها لما علمته من ذلك فدخلتها، واستولت عليها، وبمجرد استيلائها عليها انفتحت لها جميع أبواب المدن التي كانت عليها وكانت أبوابها مغلقة عليها، وذهب الضيق عنها بالكلية.

ومن وقتها تشتت الأمور على الأمير، وظهر تغلب الدولة الفرنسية عليه، فكانت تلمسان في المفتاح لهم لجميع الإقليم مع تأخر أخذها، وكانت لبنة التمام، وقد كانوا أخذوها من الأمير قبل ذلك، فحاصرهم فيها إلى أن أخرجهم منها صلحاً، لأنهم في ذلك الوقت كانوا لم يستولوا على غيرها من المدن التي كانت تحت ولايته من المدن البرية، وكانت قوته وقتئذ متوفرة في الجملة، وقلوب جميع الأهالي معه، وفي المرة الثانية كانت هي آخر بلدة أخذوها منه، وكان قد بدأ ضَعْفُهُ وعلم الكل أن حبل النجاح قد انقطع.

 استشهاد السيد محمد بن علال 

وزيادة على خروج تلمسان من يد الأمير أن خليفته المقدام السيد محمد بن علال كان سائراً بعسكره بأرض الجعافرة، ثم نزل وقد كانت العساكر الفرنسية بإثره، وبمجرد نزوله أدركته ورامت أن تحيط به، فتلقتهم عساكره، وكانت على غاية من التعب، ثم انتشبت الحرب بينهما، ولما قويت عليهم الجيوش الفرنسية اجتمعوا وجعلوا شبه قلعة

من عساكرهم ثم اشتعلت نار الحرب ولم يكن إلا شيئاً قليلاً، وحصل بعض الفشل في عسكره؛ إذ هجمت عليها الجيوش الفرنسية بقوتها، فقال بعض رؤساء العسكر للمذكور: اركبْ فرسك، وانجُ بنفسك، فإن الأمر شديد، وكان نازلاً بوسط العسكر، فلم يفعل ولا استحسن ذلك القول منه، إذ كانت شجاعته ومروءته تأبى ذلك، فصبر ثم ما لبث بعد ذلك إلا برهة يسيرة، واختل نظام العسكر بكثرة القتلى، فركب فرسه إذ ذاك ولم يبارح المقتلة إلا مقدار عشر دقائق حتى أصيب وخرّ من فرسه ميتاً رحمه الله تعالى، وقُتل جميع عسكره سوى من هرب وتوارى خلف الأشجار الملتفة. والحاصل أنه لم ينج من ذلك الجمع إلا النادر.

وكانت هذه النكبة عقب أخذ تلمسان، فتعاظم بها الخلل، وفشا التلاشي، وكثر الزلل، وكان عم الأمير المتقدم اسمه سابقاً أشار عليه بأن يحصن تلمسان كل التحصن، ويجعل عليها قلاعاً شاهقة يجلب إليها جميع ما يلزم من المهمات والذخائر والآلات ويتخذها قاعدة مملكته، ويعيدها لما كانت عليه أيام ملوكها الأوائل بني زيان، وقال له: متى

بقيت في ملكك لا يحصل للإمارة تأخير أصلاً، فكان الأمر كذلك فبمجرد ما خرجت تلمسان من يد الأمير خرج الإقليم بأجمعه من يد الأمير دفعة واحدة، وأصبحت الفرنسية في التقدم الكلي، وتم لها ملك الإقليم لأنهم في الحقيقة ما ملكوا الإقليم بجميعه إلا بعد تملكهم لها، وذلك سنة 1259هـ.

وقد كان أخبر بعض المطلعين على حقيقة الأمر بأنه لو تأخر أخذُ تلمسانَ بمقدار شهرين أو ثلاثة لكانت الفرنسية جعلت شروطاً بينها وبين الأمير، وخرجت له من جميع المدن التي كانت دخلتها واستولت عليها، فإنها ما انفتحت أعينها إلا بعد استيلائها على تلمسان.

ثم بعد أن ثبتت قدمهم فيها شرعوا في بذل الأموال البليغة لرؤساء الإقليم وأكابره أكثر مما كانوا يبذلون لها سابقاً، وأطلقوا لهم الإذن التام والتصرف العام فيما يريدونه، وأظهروا للأهالي غاية الإحسان، فاستجلبوا قلوبهم بعظيم سياستهم، وتوجهت القلوب إليهم لما كانوا يظهرونه من تمام اللطف الذي توجبه السياسة، وبها يحصل التمكن

للإنسان فيما يريد، فأعانتهم الأعراب بسبب ذلك على الأمير بوجوه الإعانة وقاتلته دونهم، وبسبب ذلك اتسع الخرق عليه، وأصبح أمره في الضعف شيئاً فشيئاً إلى أن خرج من جميع الإقليم الجزائري بعسكره وجموعه إلى أراضي المفاوز والقفار.

ولما لم يتيسر له ولا لجموعه البقاء بها من شدة الغلاء والقحط رجع والتجأ إلى الدخول في أطراف حدود الإقليم المراكشي مما يلي حدود الجزائر بمحل كانت برابره فوضى، وهم دائماً يقتتلون بعضهم مع بعض، ويقطعون الطرق، والحكَّام المراكشية لا تنالهم، ولا يسمعون قولها، ولا يلتفتون إليها ولا لأمرها أو نهيها، ولا آمراً بينهم يأمر بمعروف ولا ناهياً ينهى عن منكر، وإنما هي تحت سلطان مراكش بمجرد الاسم.

فلبث مخيماً هناك نحو الثلاث سنوات أو ما يَقرب منها، وكان في هذه المدة يشن الغارات على الأراضي الجزائرية وعلى أعرابها الذين استجلبتهم الفرنسية بسياستها، فقاتلوه معهم، وتارة على الجيوش الفرنسية ثم يرجع بما غنم إلى تلك

الأراضي والجبال، ويستقر بها إلى أن ينفد بعض ما حصله من ذلك الغزو، فحصل للفرنسية بسبب ذلك غضب شديد، ولا سيما حين لم يتمكن لها الوصول إليه لتحصنه بتلك الأراضي والجبال، وعظيم المشقة إن تجشموا الوصول إليه بما يلحقهم من الخسارات الجسيمة، والمواقع العظيمة من أهالي تلك الجبال الشوامخ، وربما لا يتم لهم المطلوب، ولا يظفرون بالمرغوب، فبعثوا لسلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بأن يخرجه من أرضهم حسب الاتفاق والشروط التي كانوا اشترطوها عليه حين محاربتهم له بأراضي مدينة وَجدة من أطراف مملكته مما يلي حدود الجزائر، لا سيما وأن الأمير كان بعد مقاتلتهما بتلك الأراضي غزا غزوة، فلما سمعوا به خرجوا إليه من جامع الغزاة[1] ليمنعوه من الدخول إلى الأراضي الجزائرية فحاربهم، ولما تحققوا بالهلاك جعلوا عسكرهم شبة قلعة، فاحتاط بهم، فلم يبرحوا إلا زماناً يسيراً حتى استأصلهم جميعاً، ولم ينج منهم أحد إلا من أخذ أسيراً من العسكر ومن الرؤساء الذين لم يقتلوا في المعركة.

---

(1) وردت في تحفة الزائر (الغزوات).

ثــم ســار مشـــرّقاً فلـما وصـل إلى أراضي قريـة تموشـنت صـادف في طريقـه ثلاثمئـة عسـكري مـن الجنـد الفرنســي كـان آخذاً جملـة مـن الصـناديق المملـوءة بالبـارود والسـلاح، فلـما دنـا منهـا ســلَّمت أمرهــا إليــه بــلا ضرب ولا محاربــة، ووضــعت السلاح، وذلك أن رئيس تلك الشـرذمة قال لها:

لا يسـعنا إلا التسـليم، فإننـا إن حاربنـا فـلا بـد أن تأخـذ النار في صناديق البـارود فتحـترق يقينـاً، وعـلى كـل فلسـنا نـاجين فاختــاروا التســليم، ووضــعوا ســلاحهم فاســتلمه عســكر الأمير.

وبعـد تسـليمهم بعـثهم الأمـير إلى دائرتـه ومحـلّ مخيّمـه، وســار مشـــرّقاً إلى أن وصــل إلى جبــال زواوة بــالقرب مــن الجزائــر بخيولــه دون عســاكره المشــاة، فإنــه قــد أذن لهــا في الرجـوع لحمايـة أهلـه ومـن كـان معـه مـن الأهـالي مـن جماعـة البرابرة التي خيَّم بوسطها.

وقـد فتـك في هـذه الغـزوة فتكـاً ذريعـاً بالعربـان التـي كانت معينة للفرنسية عليه.



سلطان مراكش يأمر بإخراج الأمير

ثم بعد رجوع الأمير من هذه الغزوة إلى محله من الأراضي المراكشية كتب سلطان مراكش إلى رؤساء تلك الجبال من البرابرة التي كان الأمير مخيماً بأراضيها بجموعه وعسكره، ومستقراً بوسطها بأن يخرجوه وجموعه من بينهم، وحثهم على ذلك كل الحث وحرضهم كل التحريض، وقرأت رؤساء البربر مكاتيبه على الناس بالأسواق وفي الأندية وفي جميع المحافل ومواضع الاجتماع، فلم يلتفتوا إلى تحريضه لعدم اتفاق كلمتهم على ما طلبه منهم، فإنهم وإن كانوا على غاية من التوحش يعلمون أن الأمير مجاهد في سبيل الله، وقد دخل أرضهم وهم مسلمون، فتحرم مقاتلته شرعاً وتقبح طبعاً على أنهم إن راموا ذلك فلربما يخسرون ولم يحاول ذلك منهم سوى برابر قليعة المجاورين لمدينة مليلية من أراضي الريف، فرجع سهمهم عليهم، وخسروا يومهم وأمسهم، فإنهم حاربوا الأمير، فقتل منهم سبعمئة رجل في المعركة.



الأمير يطلب فتاوى من علماء مصر بشأن سلطان مراكش

ثم إن السلطان عبد الرحمن لما أظهر العداوة للأمير وأفشاها لجميع رعيته بحيث إنها اتضحت لدى الخاص والعام، ورام محاربته بعث سعادة الأمير سؤالاً لعلماء مصر يستفتيهم في شأنه؟

فأجابه العلامة المحقق محمد عليش شيخ المالكية بالديار المصرية، ونص السؤال:

الحمد لله من خويدم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر بن محيي الدين إلى ساداتنا العلماء الأبرار الأفاضل الأخيار رضي الله عنكم وأرضاكم، وجعل الجنة منزلكم ومثواكم.

[ما] جوابكم عما فعله بنا سلطان الغرب من المنكرات الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس فضلاً عن أعيانهم، فأمعنوا نظركم فيها شافياً، وأجيبونا جواباً كافياً وافياً خالياً من الخلاف ليجلوا قلب سامعه عن الاعتساف،

وذلك أنه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر، وخلت الإيالة من الأمير، وانقطعت السبل، وعطلت الأسباب، وطالت شوكة الكافر، اجتمع ذوو الرأي، وتفاوضوا على أن يقدموا رجلاً من ساداتهم يؤمّن السبل، فاختاروا رجلاً منهم وقدموه لذلك، فتقدم وعمل جهده فيما قدموه له، فتأمنت السبل بحمد الله، وتيسرت الأسباب بعونه، وجاهد في سبيله، وذلك من لدن سنة 1246هـ إلى سنة 1263هـ هذه، ولن تزال كذلك إن شاء الله، فإذا بسلطان المغرب فعل بنا الأفعال التي تقوي حزب الكافر على الإسلام، وتضعفنا، وأضر بنا الضرر الكثير، ولم يلتفت إلى قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يسلمه، ولا يظلمه»، ولا إلى قوله ﷺ: «المؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»، ولا إلى قوله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة.

فأول ما فعل بنا أننا لما كنا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحواً من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبيل ومادة البر

من الحب والحيوان وغيرهما تضييقاً عليه وتضعيفاً له خصوصاً من جهة الحيوان؛ لأن قانون عسكره أنهم إذا لم يأكلوا اللحم يومين أو ثلاثة يفرون عن طاغيتهم، ولا يقاتلون، ولا يلامون حتى بلغت قيمة الثور عندهم مئة ريال دُورُ، فإذا بالسلطان المذكور أمدهم وهم في الضيق الشديد بألوف مِنَ البقر وغيرها.

الثاني: أنه غصب من عاملنا ألفاً وخمسمئة بندقية إنكليزية.

الثالث: أنه غصب من وكيلنا أربعمئة كسوة جوخ أعددناها للمجاهدين.

الرابع: أن بعض المحبين لله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به ليعين به المجاهدين، وإذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه، وقال: أنا أحق بها، والحال أنه لم يجاهد. وأيضاً: إن بعض القبائل من رعيته عزموا على إعانتنا بأنفسهم في سبيل الله، فمنعهم من ذلك، وأعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله، فحبسه إلى الآن زجراً له وردعاً لغيره.

الخامس: أنه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة مع الفرنسيين أياماً قلائل ثم تصالحا اشترط عليه الفرنسيس أَلَّا يتم الصلح بينهما إلا إذا حل أمر هذه العصابة المحمدية (المجاهدين)، ويقبض رئيسهم، فإما أن يحبسه طول عمره، وإما أن يقتله، وإما أن يمكنهم منه[1]، أو يجليه من الأرض، فأجابه السلطان إلى ذلك كله.

ثم أمرني بترك الجهاد، فأبيت لأنه ليس له عليّ ولاية، ولا أنا من رعيته ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من لم يحتمل، وأسقط من المجاهدين ركباً، ثم أخذ يسعى في قبضي، فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيس، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، وكان استحل ذلك، فأبوا، جزاهم الله خيراً.

فإذا تصورتم أيها السادات هذه الأفعال التي تتفطر منها الأكباد، وتتناثر عند سماعها العباد، فهل يحرم عليه

---

(1) في الأصل: (يمكنه منهم)، والمعنى هكذا لا يستقيم، والصواب ما أثبتناه في المتن.

ذلك، ويضمن ما غصب؟ ويُقتل بنا إن قتَلنا حسبما نص عليه المعيار، ونقله عن نصوص الشافعية والمالكية؟ وهل المهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة؟ لأن الجهاد تعين عليه قبل أن يفجأه العدو بسبب قربنا منه، وعجزنا عن الجهاد ولأن منفعتها عائدة على الكفار ووبالها على الإسلام كما هو مشاهد حسب ما نص عليه في (المعيار) أيضاً، وهل يَحِلّ بيع البقر لهم وقت أن حصرهم المسلمون على حرمة بيع الخيل لهم والشعير وآلة الحرب أم لا؟ وعلى أنه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا وتفرق جماعتنا وما ينشأ عنه بترك الجهاد بالكلية، واقتحم الأمر، وشق العصا، وجاءنا بالجيش ليقتلنا، ويأخذ أموالنا، ويفرّق جماعتنا، فهل يجوز لنا أن نقاتله بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة في (شرح لامية الزقاق) في آخر باب الإمامة الكبرى، ونصُّه: (انظر إذا خلا الوقت من الأمير، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ليمهد سبيلهم، ويرد قويهم عن ضعيفهم، فقام بذلك قدر جهده وطاقته، والظاهر أن القيام عليه لا يجوز، والمتعرض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته، ففي

صحيح مسلم عن زياد بن عِلَاقةَ، قال: سمعت عَرْفَجَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول[1]: «إنها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان»، وبسنده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه» أم لا يجوز لنا ذلك، ونترك الجهاد!! ليس إلا جوابكم تؤجرون وتحمدون، وعليكم السلام في البدء والختام، والحمد لله رب العالمين.

فأجاب الأستاذ المذكور بما نصّه:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله المهتدين، نعم يحرم على السلطان المذكور - أصلح الله أحواله - جميع ذلك الذي ذكرتم حرمة معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من.....[2] ولم يخطر ببالنا أن يصدر منه هذه الأمور مع مثلكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وما قدّر الله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون خصوصاً وأنتم جسر بينه

---

(1) كلمة (يقول) إضافة من المدقق، وليست في الأصل.

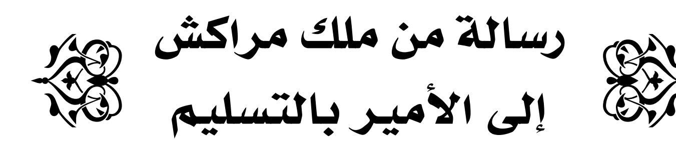
(2) كلمات مطموسة.

وبين عدوّه، وكذا ضمانه لما غصب ضروري، لا يشك فيه مسلم، وكذا استحقاقه القصاص منه بقتله مؤمناً عمداً عدواناً مباشرة، أو بإكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التأويل، والمهادنة التي أوقعها فاسدة منقوضة، وبيع البقر وسائر الحيوان، والطعام والعروض، وكل ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعاً إجماعاً ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حصر المسلمين إياهم وفي حال عدمه، إذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من النساء والصبيان من أهل تلك البلاد ومَنْ قَرُب منهم كأهل عمل السلطان المذكور وفقه الله تعالى، فكيف يتخيل مسلم أن معاملتهم بما يُنفعون به ويتقوون به على البقاء في أرض الإسلام جائزة مع ذلك، وإن اقتحم الأمر، وشق العصا، وأتاكم بجيشه وجب عليكم قتاله[1] وجوباً عينياً، إذ هو حينئذ كالعدوّ والبغاة المتغلِّبين الفاجئين القاصدين الأنفس والحريم لعدوانه وتجارُئِهِ على ما أجمع المسلمون [عليه] وهو

(1) في الأصل: (قتالاً) والصواب في تحقيق المعنى ما أثبت أعلاه.

أنفسكم وحريمكم وأموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالإجماع من جهاد الكفار الفاجئين لكم، والمقتول منكم في قتاله كالمقتول في قتال الكفار ليس بينه وبين الجنة إلا طلوع الروح، فصمموا على قتاله، وأعدوا له ما استطعتم من قوة، نصركم الله تعالى عليه وعلى أعداء الدين، وبارك فيكم، وفي كل من أعانكم من المسلمين، وخذل كل من عاداكم كائنا من كان، وجعل كيده في نحره.

وقد اقتصرت من السؤال والجواب على هذا المقدار رَوْماً للاختصار.



رسالة من ملك مراكش إلى الأمير بالتسليم

ثم لما أيس ملك مراكش من اجتماع كلمة البرابرة على محاربة الأمير وخروجه من أراضيهم مع تشديد الدولة الفرنسية عليه في ذلك، بعث إلى الأمير وفداً، فلما اجتمعوا به قالوا له: إن سيدنا يقول لك: إما أن تذهب إلى الصحارى والقفار، وإما أن تسلم أمرك إليَّ، وتدخل تحت طاعتي

وعسكرك ندخله في عسكري وكل من كان منهم رئيساً يبقى على رئاسته، وتُفرق تلك الجموع التي هي معك، وإلا بعث إليكم من يفرق جمعكم.

فأجابهم: بأن هذه الأراضي مهجورة، ولا سلطة له على أهلها ولا أمر له فيهم ولا نهي ولا ضرر عليه في دخولي لهذه الأراضي حيث لا نفع له يحصل من أهلها، وقد ألجأتني الضرورة إلى الدخول لها.

وكان من المحقق أن الأمير لو سلم أمره إليه، ودخل تحت قبضته لا بد وأن يقتله قطعاً وخروجه من تلك الأراضي إلى الصحارى المهلكة ذات المفاوز والقفار لا يمكنه لضعف حال من كان معه من الجموع وهم نحو خمسة وعشرين ألفاً ما بين رجال ونساء وأولاد ولو تكلف هو الخروج بعسكره وتركهم للبرابرة لنهبتهم وسبت نساءهم وأولادهم وهم قد انقطعوا معه، والتجؤوا إليه وعرضوا أولادهم ونساءهم وأنفسهم للتهلكة لأجله وابتغاء مرضاة الله ورسوله، فلم يسعه إلا البقاء معهم بتلك الأراضي، وتسليم الأمر لمدبره يصرفه كيف يشاء جلَّ جلالُهُ.

فلما رأى ملكُ مراكش الأميرَ مصمماً على عدم تسليم نفسه إليه وعلى خروجه من أرضه بعث إليه جيشاً من جيوشه تحت رئاسة عظيم جيوشه المسمى القائد الأحمر، وأمره بمقاتلة الأمير وتشتيت شمله وتفريق جموعه.

فسار نحو الأمير مجداً إلى أن قرب من مخيم الأمير على ست ساعات، بعث أربعمئة فارس لتخدع الأمير، وتأخذه على غرة، ويظهرون بالسلم عند مرورهم، فإذا ظهر لهم الأمير أخذوه حياً أو أنهم يطلقون عليه الرصاص، فبمجرد ما قربت من الأهالي تلك الشرذمة بادرتها الأهالي بالرصاص، فانجرح منهم البعض، وركب الأمير في جملة من الخيول ولحقهم فرجعوا إلى محلتهم خائبين.

وبعد ذلك بيومين أو ثلاث جمع الأمير أمره، وغزا عليهم ليلاً قبيل انصداع الفجر، فهزمهم وقتل رئيسهم القائد الأحمر بالمعمعة، ثم قطع رأسه، واستولى الأمير على جميع ذخائر ذلك الجيش وأسلحته وخيوله وبغاله، وقع ذلك قبل محاربة برابر قلعية بشهور.

وتقـدم أن السـبب الحامـل إلى بعـث القائـد الأحمـر لمحاربـة الأمـير هـو الشـرط الـذي اشـترطه الفرنسـيون[1] عـلى صـاحب مـراكش لمـا حاربتـه وهزمـت عسـاكره في أراضي مدينـة وجدة، وذلك سـنة 1261هـ وكـان صـاحب مـراكش جمـع لهـذه الحـرب الجمـوع الـوافرة مـن العـرب والبربـر، فكانـت نحـو الثمانـين ألفـاً ولإعجابهـا بـالكثرة وعـدم وجـود التنظـيم العسـكري وعـدم أخـذ الاحتياطـات اللازمـة كانـت الـدائرة عليها، فانهزمـت في أسرع وقـت وتركـت جميـع ذخائرهـا مـع قلـة الجيوش الفرنسية[2] إذ كانت ثلاثين ألفاً.

ولمـا رأت الدولـة المراكشـية أن لا قـدرة لهـا عـلى مقاومـة الفرنسـية، وإن كانـت أكثـر عـدداً منهـا بأضـعاف طلبـت منهـا المصـالحة، فأجابتهـا إلى ذلـك، واشـترطت عليهـا شروطـاً، وكـان أول شرط أنهـا تلتـزم إخـراج الأمـير مـن أراضي مملكتهـا، فتعهـدت لهـا بـذلك ثـم فعلـت مـا فعلـت مـن إغرائهـا برابـر مملكتها عليه، ومن بعثها القائد الأحمر لمقاتلته.

---

(1) في الأصل: (فرنسوية).

(2) في الأصل: (فرنسوية).

ولما لم يحصل لأفعالها المتقدمة نتيجة، جيّشت جيشاً عرمرماً، ووجهته لمقاتلة الأمير، واتفقت هي والدولة الفرنسية بأن يكونوا يداً واحدة عليه، فأتت المراكشية من ورائه ووقفت الفرنسية قرب الحدود الجزائرية أمامه لئلا يفر إلى المفاوز والقفار، وقد خرجت إليه الجيوش المراكشية من فاس في ثلاثين ألفاً، ثم لا زالت تحشد الجيوش، وتنضم إليها الأعراب والبرابر، وتكثر سوادها طلباً للسلب والنهب إلى أن صارت تلك الجموع تملأ السهل والوعر ومعها أولاد ملك مراكش الثلاثة وهم محمد الذي تولى بعد أبيه، وأحمد وسليمان، وحرضهم والدهم كل التحريض على استعمال غاية الاجتهاد في المحاربة، وإبداء التيقظ التام، وشدة الحزم والعزم على تفريق جموع الأمير وقتله أو الإتيان به إليه، فرحلوا مجدين بجيش جرار يسد الخافقين إلى أن وصلوا إلى أراضي قلعية من أراضي الريف وخيّموا بها.

جمع الأمير أمره، وغزا عليهم ليلاً حيث لا يمكن محاربتهم نهاراً لكثرة عددهم وقلة عسكره، إذ لولا وجود التنظيم العسكري عنده دونهم وقوة قلوب جماعته لكثرة

تمرنهم على الحروب لما قدروا على مقاتلتهم لا ليلاً ولا نهاراً، ولا بمقدار لحظة من الزمان، فقاتلهم تلك الليلة بطولها قتالاً شديداً، ودخل عسكره محلتهم الأولى والثانية، وتركوا ذخائرهم وخيامهم، وانضموا جميعهم إلى المحلة الثالثة، ثم انضم الجميع إلى محلة أولاد الملك، وكانت قوته كثيرة، وكل تلك المحلات التي دخلتها عساكر الأمير تركت ذخائرها وخيامها وعظم الأمر حتى صار الليل نهاراً من كثرة النيران البارودية، ولما كلت عساكر الأمير، والجموع التي كانت معه أمرهم بالخروج من تلك المحلات والمخيمات التي كانوا دخلوها قبيل انصداع الفجر، حيث لم يظفروا بالمطلوب، إذ كان مقصوده أن تكون محاربتهم أولاً مع محلة أولاد السلطان، فصدهم صادٌّ عن ذلك، فالتزموا محاربتهم لتلك المحلات التي ذكرناها، ولو أعانهم القدر بمحاربتهم للمحلة المذكورة لحصلت نتيجة وأي نتيجة، ولكن القدر لا يغالب.

ثم خرج الأمير من محلاتهم وخيمهم ولم يأخذوا منها إلا شيئاً يسيراً من أسلحتهم وبارودها وتركوها وجميع ما فيها، وكروا راجعين إلى مخيَّمهم، ثم انتقلوا إلى محل غير محلهم السابق.

ثـم لا زال الأمـير يتباعـد عـنهم وهـم يتقـدمون مقتفـين أثـره، ومـا مـن دار يرحـل عنهـا إلا ويصـبحون مخيمـين فيهـا إلى أن نزل الأمير وجموعـه عـلى النهـر الكبـير المسـمى بِملْوِية بقـرب مصبّه على البحـر تحـت جبـل كَبْدانـة، وكـان ذلـك المحـل يقـرب من الخط الجزائري على نحو سبع ساعات.

ثم اقتحمت جمـوع الأمـير ذلـك النهـر وعبرتـه عشـية بـلا إذن منـه خشـية مفاجـأة الجمـوع المراكشـية لهـم، وهـم بـذلك المحصـر، فتستأصـلهم جملـة واحـدة ولا ينجـو مـنهم أحـد، إذ لا قدرة لهم على مقاومة تلـك الجمـوع، ولا مفـرّ لهـم لوقـوعهم بـين جبـل ونهـر كبـير عسـير العبـور وبحـر، إذ كـان الجبـل غـربيّهم والبحـر شـمالهم، ونهـر ملويـة أمـامهم، ومـن جهـة يميـنهم الجموع المراكشـية، فأصـبحوا لا ملجـأ لهـم مـن الله إلا إليـه، ولمّـا عبروا ذلـك النهـر بالمشـقة العظيمـة نزلـوا وخيمـوا بـالقرب مـن النهـر، فلـم يلبثـوا إلا يـومين، وإذا بـالجيوش المراكشـية خيمـت بمحلنـا بـالأمس، فتوجـه الأمـير بعسـكره وخيالتـه نحـوهم، وقوضـت الأهـالي خيامهـا، وسـارت متوجهـة نحـو الحـدود الجزائريـة فـراراً مـن مـوت إلى مـوت، ثـم انتشـبت الحـرب بـين

الأمـير وبـين تلـك الجيـوش عـلى ذلـك النهـر، وبسـبب تحصـن الأمير بذلك النهـر، والتفـاف شـجر الطرفـاء بضـفته قتـل الأمـير مـنهم خلقـاً كثـيراً، وقـد هجمـوا مـرات عـلى النهـر، وقصـدوا العبـور، فلـم يمكـنهم ذلـك لعسـر العبـور وعـدم فـترة النـيران المتتابعة، وكـان كـل مـن رام العبـور سـقط مـن عـلى ظهـر فرسـه إما بالرصـاص وإمـا بطغيـان المـاء فيأخـذه مـع فرسـه إلى البحـر، إذ قد استبحر ذلك النهر عند قربه من البحر.

ثم لما طال الأمـر علـيهم وأيسـوا مـن العبـور إليـه وجهـوا جيشـاً آخـر إلى محـل بعيـد عـن معمعـة القتـال ليعـبر النهـر بـلا معـارض، فلـما رآه الأمـير عـبر التفـت إليـه وفي صـحبته السـيد قـدور بـن عـلال، وتـرك جملـة مـن خيولـه لتمنـع ذلـك الجـيش الذي كـان الأمـير مواجهـاً لـه مـع رئـيس خيالتـه المرحـوم محمـد بن يحيـى، فتكـاثرت علـيهم الجمـوع، وهجمـت بقـوة عـلى النهـر فعبرتـه، وانهـزم المـذكور بخيولـه، ولحـق بـالأمير؛ إذ قـد اسـتحر القتـل في جماعتـه، ثـم أمـر الأمـير بـالرجوع، وبـذل الجهـد في المدافعـة، فقـال لـه المـذكور: لم يبـق إلا المـوت، فقـال لـه: ارجـع فمـت، فرجـع بمـن معـه، فأصـيب بـأول هجـوم، ومـات،

وانهزمت خيوله، فعبرت الطائفة التي كان المذكور في مقابلتها، والتقى الجمعان على الأمير فقاتلهم مدة، ثم انهزم قاصداً عسكره المشاة النظامي، الذي كان تركه خلفه، وكانوا قليلين جداً وهم بالنسبة إلى عددهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وقد كان الأمير قال لرئيس عسكره: إننا نحاربهم على النهر، ثم إن تكاثرت علينا الجموع فإننا نلتجئ إليكم وندخل وسطكم، ونجعل العسكر قلعة مربعة الأركان على العادة عند كل شدة، ثم نرسل النيران المتتابعة عليهم إلى أن نفنى، أو يجعل الله لنا فرجاً ومخرجاً.

ثم لما سار الأمير بخيوله قاصداً عسكره المشاة المذكورين اتفق أنه صادف عسكره بطريقهم وادياً، فقال لهم كبيرهم: إن خيول الأمير جاءت منكسرة، فهلموا مسرعين لنقطع هذا الوادي قبل وصول الخيول إلينا وتراكمها علينا، ثم نجعل القلعة المذكورة، فتفرق العسكر ليقطع ذلك الوادي، ثم يجتمع بعد ذلك فاختل نظامه عند قطعها لعسر عبورها وسرعة وصول الشدة إليهم، إذ لم يكن إلا مقدار عشر دقائق حتى دهمتهم خيول الأمير المنهزمة، فشتتهم وفرَّ

رئيسهم في جملة من فرّ، وشدةُ الأمر لم يمكنهم الاجتماع، وفاتهم التدارك مع ذهول العقول واندهاشها، ولم يبق للتدبير مجال وعند ذلك تقطعت بالأمير الأسباب، وتفرّق جمعه، وقتل من ذلك العسكر من قُتل، وأُسر منه من أسر بلا شديد محاربة لاختلال نظامهم، ثم رجع الأمير بمن بقي معه من الخيول على تلك الجيوش ليلقي نفسه في الهلاك، ولم يلذ له البقاء بعد جماعته، وخاطر بنفسه مراتٍ كل المخاطرة، وصارت المكافحة بين خيوله وخيولهم يكر عليهم هو تارة، ويكرون عليه أخرى، وهكذا من وقت الضحى إلى وقت الغروب.

ثم لما وصلت جموع الأمير إلى الحدود الجزائرية من المحل المسمى عند الغروب ولّت الجيوش المراكشية عنها ولمدافعة الأمير تلك الجيوش لم يأخذوا من جموعه سوى العسكر الذي قدمنا ذكره، وكانت الجيوش الفرنسية تجتمع بالقرب من الحد الجزائري ينتظر بها رئيسها المونيسير قدوم دوكدومال ابن الملك فيليب عليه، ليتقدم بها نحو الأمير حسب الاتفاق الواقع بين الدولتين.

ولما وقع بالأمير ما وقع، وفرقت جموعه، وقتل من عسكره من قتل، وأسر من أسر في ذلك اليوم الذي يكاد يشيب فيه الرضيع، طلب الأمير النجاة والخلوص بمن بقي معه من الخيول والذهاب إلى الصحراء ذات المفاوز والقفار، فلم يتمكن له ذلك لكون جميع الطرق التي هي أمامه كانت مسدودة من جميع جهاتها بالعساكر الفرنسية، وبالعسس في جميع المحلات وجميع المظان التي يمكنه الذهاب منها، والخلوص من جهتها إلى الصحراء، وكان الأمير قصد محلات متعددة للعبور منها إلى المفاوز فوجدها كلها معمورة بالعسس بحيث إنه لا يمكنه النفوذ منها بالحريم والأولاد.

ثم قصد السيد المختار أبو تشيش رئيس جبل بني يزناسن من قبائل البربر، لما يعلمه من تمام المحبة والمودة التي كانت بين والد الأمير وبينه، فسار نحوه مجداً يعلو جبلاً، وينزل آخر إلى أن قرب من منزله، فأرسل إليه ليواجهه لعله يشير عليه بأمر أو يجد عنده مخلصاً، فامتنع من مواجهته بعد أن أرسل إليه جميع ما يحتاجه هو وجماعته من الطعام وعلف الدواب، وقال لمن أوصل ذلك: سلموا على الأمير وقولوا

لـه: إنـه لا يقـدر عـلى المخـاطرة بنفسـه وأولاده ومـن يخصّـه ويعرضـهم للهـلاك فـإن المخـاطرة شرعـاً لا تجـوز، وحمايتـه غـير ممكنـة لأمثـالي، إذ هـو مطلـوب لـدولتين وهـا همـا حملتـا عليـه بقوتهما وخـيلهما ورجلهـما، فأنـا لا أقـدر عـلى المدافعـة عنـه بوجـه من الوجوه، ولا يقـدر عـلى ذلـك إلا دولـة مـن الـدول لمـا تـرون ممن هو مشاهد، فالعذر واضح.

فاتضـح للأمـير أن لا مخلـص لـه لوجـود الحـريم والأولاد، ولا يمكـن أن يـتركهم لفـم العـدو وينجـو بنفسـه، فحينئـذ استشـار مـن كـان معـه في أن يسـلّم نفسـه للدولـة المراكشية، فكلهم أَبَـوا عليـه ذلـك، وأشـاروا عليـه بـألَّا يفعـل لمـا يعلمونه فيهم مـن شـدة الغضـب وزيـادة التـوحش وتمـام الغلظـة وعظـم الحمـق وقـد شـوهد مـنهم مـا يصـدق ذلـك، فـإنهم لمـا قبضوا أخا الأمير السـيد أبـا بكـر عليـه رحمـة الله في ذلـك النهـار، وكـان مجروحـاً بالرصـاص في رأسـه مـع ابـن أخيـه السـيد محمـد الصـادق ابـن السـيد محمـد السـعيد رحمهـما الله تعـالى أخـذوهما وواجهـوا بهـما أولاد ملـك مـراكش المـذكور اسـمه سـابقاً لينظروهمـا، وكانـت الغوغـاء سـلبتهم ثيـابهم كلهـا حتـى سـاتر

العـورة، وقـدموهما إلـيهم عـلى هـذه الحالـة فنظروهمـا وأمـروا بهما، فَغُلَّا بـالقيود في أعنـاقهما عـلى تلـك الحالـة مـع مـن أمسـكوه مـن عسـاكر الأمـير، ولم يـأمروا لهـما بـما يـواري عـورتهما، وليـت شعري كيف ساغ لمـروءتهما ذلـك مـع مـا اتفـق مـن أن رجـلاً مـن قبيلة المطالسة عـرّفهم بهـما، وقـال لهـم: هـذا أخـو الأمـير، وهـذا ابـن أخيـه، ويعلـمان أنهـما أبنـاء مجـد وفضـل، وقـد قـال ﷺ: «أكرمـوا عزيـز قـوم ذل» ثـم ردوهمـا إلى الأسرى، وبيّتوهمـا تحـت أديـم السـماء، وهـم حفـاة عـراة، والليلـة شـديدة الـبرد، قـبح الله مَـنْ لا مـروءة لـه، ثـم حـزّوا رأس السـيد أبي بكـر المـذكور، وأخـذوه إلى فـاس في جملـة رؤوس مـن مـات مـن جماعـة الأمـير، ووضـعوا تلـك الـرؤوس عـلى سـور مدينـة فـاس مـدة أيـام ثـم واروهـا بعـد ذلـك، وأمـا السـيد محمـد الصـادق المـذكور فـإنهم أخـذوه إلى فـاس مقيـداً في إهانـة شـديدة حبسـوه بهـا سـنة ونصـفاً، ثـم أخـذوه إلى مـراكش مـع مـن أخـذوه مـن عسـكر الأمير.

وبالجملـة فقـد كـان مـن المحقـق عنـد جماعـة الأمـير أن لهـم مثـل هـذه القبـائح وأعظـم، ولـذا لمـا استشـار مـن معـه في

تسليم أمره للمراكشية أبوا عليه ذلك كلهم حتى قيل له: إن سلمت نفسك إليهم فلا بد أن يأخذوك إلى فاس ويلبسوك قميصاً من خشب إلى أن تموت كما هي عادتهم في قتل أمثالك فإن القوم متوحشون، وشدة غضبهم تمنعهم من الأفعال الحميدة شرعاً أو طباعاً.

الأمير يسلم نفسه لفرنسة

فبعد ذلك أجمع أمره على أن يسلم نفسه للدولة الفرنسية لما هو محقق من سيرهم مع القوانين السياسية، وكونهم لا يهينون الرؤساء والأكابر من ذوي البيوت ولو كانوا أعداء لهم، وبسبب ذلك لا يمكن أن يحصل له منهم أدنى إهانة أو ضرر، فكتب لرئيس جيوشها الذي كان مخيماً بالقرب من الحدود الجزائرية أن يؤمنه ليسلم أمره إلى حكومته، واشترط عليه شروطاً، وهي أن تحمله دولته وجميع من يريد الذهاب معه إلى الإسكندرية أو غيرها من البلاد الشامية، وألَّا يتعرضوا لمن أراد السفر معه من رؤساء عسكره وأغوات جيشه، وأن من بقي عندهم من مشايخ

جمـوع الأهـالي التـي كانـت معـه لا يتعرضـون لـه بسـوء لا في نفسه ولا في مالـه، فأجابـه ذلـك الـرئيس بقبـول تلـك الشـروط. وكتـب لـه وخـتم، فحينئـذ سـلم نفسـه، وذلـك في أوائـل محـرم سـنة 1264 هــ. وتوجـه إلى معسـكرهم، فتلقـوه بالترحيـب والتكـريم والجلالـة والتعظـيم، وتوجهـوا بـه إلى جـامع الغـزاة[1] -اسـم مرسـى مـن مـراسي الجزائـر مما يـلي الحـدود المراكشـية- وأركبوه منها في البحـر إلى وهـران، ثـم منهـا قطعـوا بـه البحـر إلى بلادهـم، وأنزلـوه بمدينـة طولـون، وبقـي قهـراً، بهـا نحـو ثلاثـة أشهر ونصف.

فـأتى إليـه بهـا أربـاب المجلـس الكبـير مـن بـاريز قاعـدة ملكهـم، واسـتنطقوه[2] عـن محاربتـه لهـم، وكيـف أبـاح قتـل الثلاثمئـة عسـكري التـي كانـت سـلمت نفسـها إليـه بـأراضي قرية تموشنت[3]، فقتلـت صـبراً هـي ومـن كـان معهـا ممـن أسر في واقعة جامع الغزاة، ولم يترك سوى رؤسائها.

---

(1) وردت في تحفة الزائر: (الغزوات).

(2) أي استجوبوه.

(3) في الأصل: (تموشت).

فأجابهم: بأن محاربتي معكم كانت للمحافظة على وطني، وجرياً على ما تقتضيه الإنسانية، وتحكم به من وجوب مدافعة الشخص عن نفسه، ومن يلوذ به، وأن أهل إقليمي سلموا إلي أمرهم للذب عنهم والقتل دونهم، فيجب علي المدافعة عنهم ما دامت روحي في جسدي. وأما العسكر الذي قتل صبراً فلم يكن ذلك بأمر مني ولا أستحسنه، ولا حمدت من فعل ذلك الفعل، وإنما الرئيس الذي كنت جعلته خليفة عني بعد ذهابي غازياً، هو الذي سولت له نفسه ذلك الفعل القبيح. فتصفحوا تاريخ قتلهم، فوجدوه مطابقاً لما ذكر فإنه كان بين المحل الذي كانوا فيه وقت قتلهم وبين المحل الذي كان هو فيه ما يزيد على عشرين يوماً للمجد، في السير. والسبب في قتلهم هو أن ذلك الرئيس أخبر بأن ملك مراكش يريد أن يغزو عليهم ليأخذ منهم تلك الأسرى في غيبة الأمير، ويسلمها إلى الفرنسية، مع ما لحقه من عظم الإنفاق عليهم وعلى عسكر الأمير، فلم يتأن بعد سماعه ذلك الخبر، وأمر بقتلهم سوى ضباطهم، والضباط الذين سلموا من القتل في محاربة جامع الغزاة[1].

(1) وردت في تحفة الزائر: (الغزوات).

ثـم إن الدولـة الفرنسـية لمـا لم تجـد عليـه نقصـاً في ذلـك القتـل لعـدم أمـره بـه؛ إذ كانـت جواسيسـهم[1] بلغـتهم الأمـر عـلى حقيقتـه مـع إخبـار ضـباطهم الـذين لم يقتلـوا، فـإن سـعادة الأمير بعد أن رجـع مـن غـزوه بقـي مـدة، ثـم استحسـن أن يمـن عـلى تلـك الضـباط، فبعـثهم إلى قريـة مليليـة -اسـم مرسـى مـن مـراسي اسـبانيا- التـي كانـت استولت عليهـا مـن قـديم الزمـان مـن أراضي المراكشـية ممـا يـلي الريـف، وثبتـت قـدمها فيهـا، كـما ثبتت في مدينة سـبتة مـن أرضـها أيضـاً، فاسـتلمت دولـة إسـبانيا الضـباط مـنهم لتسـلمهم لـدولتها، والمظنـون أن تلـك الدولـة دفعت له فداءهم لتأخذ عوضه من دولتهم. والله أعلم.

نقله من مدينة طولون إلى مدينة بو 

ثـم إن الدولـة الفرنسـية لمـا تحققـت أنهـا لم تمسـك الأمـير عنوة وقهـراً، وإنـما هـو الـذي سـلم نفسـه إليهـا باختيـاره، نقلتـه على غاية مـا يكـون مـن الاحـتراس مـن مدينـة طولـون إلى مدينـة (بو)، ومـرّ في طريقـه عـلى مدينـة توبـور بعـد أن اسـتقام بهـا مـدة

---

(1) تعني الاستخبارات.

أيام للاستراحة، وهي مدينة عظيمة على غاية الحسن والنضارة.

ثم لما وصل مدينة (بو) أقام بها سنة ونصفاً، وقد أسكنوه فيها بقصر عال مبني على تلّ يحدق به من جهاته الأربع بستان لطيف، والقصر المذكور مهيَّأ لسكنى الأكابر، وقد كانوا أسكنوا فيه ملكة إسبانيا سابقاً لما جاءتهم فارَّةً من قومها.



نقله إلى إمبواز

ثم نقلوه من تلك المدينة لقربها من الحد الذي بينهم وبين مملكة إسبانيا إلى قرية إمبواز، ومر في طريقه على مدينة بوردوا إحدى مدن فرنسا الشهيرة، وحصل له فيها من التعظيم والإكرام ما لم يعهد نظيره، وسبب ذلك: أنه وجد في البلدة المذكورة بعض البطاركة[1] وكان قدم أيام محاربة الأمير معهم على خليفته الشجاع المقدام السيد محمد بن علال، فأكرم منزله وأحسن ملاقاته، ورأى عنده بعض العساكر

(1) في الأصل: (البتاركة).

الفرنسية، فلما ودعه قال له ابن علال: إن هؤلاء العساكر قد خليت سبيلهم إكراماً لك وزيادة في ضيافتك. من غير أن يكلمه البطرك فيهم، فأخذهم معه وذهب مسروراً بذلك، فأشاع ما وقع له من الإحسان، ومن ذلك الفعل المؤذن بكمال العقل وتمام المروءة وحسن السياسة، وقد كان ذلك البطرك[1] قد علي شأنه وارتفع عندهم قدره، ولأجله زادت البلدة في إكرام الأمير وتبجيله، وقد كانت تأتي الموسيقا البلدية لمحل نزول الأمير، ولا تزال تدق وتغير النغمات من وقت العصر إلى الغروب، ثم تأتي بعدها الموسيقا العسكرية، ولا تزال نغماتها المطربة إلى أن ينام الناس، وهكذا في جميع تلك الأيام والليالي التي أقام فيها بتلك البلدة.

ثم سار منها إلى بلدة أخرى، ومنها إلى قرية إمبواز[2]، فأنزلوا الأمير في قصر عالٍ بها، أعده بعض ملوكهم ليقيم فيه ببعض أزمنة الصيف والخريف، مطلّ ذلك القصر على نهر تجري فيه السفن والبوابير (القوارب) الصغيرة على أحسن ما

(1) في الأصل: (البترك).

(2) في الأصل: (انبواز).

يـرى مـن النضـرة والبهجـة، ويحيط بـه بسـتان عظـيم فيـه ميـاه وصـهاريج، محتـوٍ عـلى أنـواع الأشـجار والأزهـار، وقـد لبـث الأمير فيه مع أهله، وحشمه ثلاث سنوات.



قصيدة الأمير في محاسن البادية

[قال الشيخ جمـال الـدين القاسـمي]: حـدثني أخـو الأمـير السيد أحمد المنـوه بـه أن الأمـير لمـا كـان مثقفـاً[1] في إمبـواز[2] اتفـق أن الدولة الفرنسية رامـت أن تحمـل جميـع أبنـاء الباديـة التـي هـي بـإقليم الجزائـر عـلى التمـدن، وعزمـت عـلى أنهـا تبنـي لهـم قـرى يسكنون بهـا، ثـم اضـطرب أهـل مجلسـها في ذلـك، إلى أن عـدلوا عن ذلك القصد خشية ألّا يتم المطلوب.

وفي خـلال المـذاكرة بـذلك طلـب بعـض كـبراء دولـة فرنسا ثمة مـن الأمـير المنـوه لـه أن يكتـب لهـم شـيئاً مـن محاسـن البادية[3].

---

(1) مثقفاً: أسيراً، انظر إلى القاموس (ث ق ف).

(2) في الأصل: (في انبواز).

(3) روايـة أخـرى في سـبب نظـم هـذه القصـيدة: =

فأنشأ هذه القصيدة اللَّطيفة[1]، وأرسلها إليه، ولتفردها في معناها آثرت ذكرها، وهي:

يا عاذِراً لامرئ قد هامَ في
وعاذلاً لمحب البدوِ والقَفرِ
أَتذْمُمَنَّ[2] بيوتاً خفَّ محملُها
وتمدَحنَّ بيوت الطّين والحَجَرِ
لو كُنتَ تَعلمُ ما في البدو تعذرني
لكنْ جَهِلتَ وكم في الجهلِ من ضررِ

=(وهو أن بعض أمراء الفرنسية تذاكروا في الحضارة والبدو، فبعضهم فضل الحضارة، وبعضهم فضل البادية ثم اتفقوا على أن يحكموا الأمير فيما بينهم لأنه مِمَّنْ سكن الحضارة والبدو، فحكم لفضل البادية، وأجابه بهذه القصيدة). انظر: تحفة الزائر 3/ 17.

(1) قام محمد مطيع الحافظ بنشر هذه القصيدة في مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الأول، ص/ 97- 100/ اعتماداً على وثيقة مخطوطة بخط الأمير أحمد أخي الأمير عبد القادر، وقد ذكرها أيضاً الأمير محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه: (تحفة الزائر).

(2) في ت: (لا تذمن).

أو كنـتَ أصـبحت في الصـحرا تمـرُّ
بسـاطِ رمـلِ بـه الحصـباء كالـدُّرَرِ
أو جُلـــتَ في روضـــة قـــد راق
بكـل لـونٍ جميـلِ طيـبٍ[2] عَطِـرِ
تستنشـقنَّ نسـيماً طـاب مُنْتَشَـقاً
يزيـدُ في الـرُّوح لم يَمْـرُرْ عـلى قَـذرِ
أو كنـت في صـبحِ ليـلِ هـاجَ
علـوتَ في مَرقَـبٍ وجُلْـتَ
رأيـتَ في كـل وجـه مـن بسـائِطها
سرباً مـن الـوحشِ يرعـى أطيـبَ الشـجرِ
فيـا لهـا وَقْفـةٌ لم تُبـق مـن حَـزَنٍ
في قلـبِ مُضـنىً ولا كـدٍّ لـذي ضَـجَرِ
نُباكرُ الصيدَ وقـت الفجـر[5] نَبْغتُـهُ
فالصيد منّـا مـدى الأوقـاتِ في ذُعـرِ

---

(1) في ت: (في الصحراء مرتقباً).

(2) في ت: (شيق).

(3) الهاتن؛ السحاب، مادة القاموس (ه ت ن).

(4) في ت: (أوجلت).

(5) في ت: (أحياناً فنبغته).

فكـــم ظلمنـا ظَلَـيـماً[1] مـع نَعامَتِـهِ
وإن يكــنْ طـائراً في الجــو كالصَـقرِ
يــوم الرحيـل إذا شُــدّت هوادجُنـا
شـــقائقٌ عمَّهـا مُــزْنٌ مـــن المطــرِ
فيهـا العـذارى وفيهـا قـد[2] جعلــن
مُرقَّعــاتٍ بــأعينٍ مـــن الحَـــور[3]
تمشـــي الحُــداة لهـا مــن خلفهـا
أشــــهى مـــن النـــاي والسّـــنطير[4]
ونحن فـوق جيـاد الخيـل نركُضُـها
شـليلُها زينـــةُ الأكفـــالِ والخَصـــر
نطارد الـوحش والغـزلان نلحقُهـا
عـلى البِعـاد ومـا تنجـو مـن الضـمرِ
نــروح للحــي لـيلاً بعــدما نزلــوا
منـازلاً مـا بهـا لطـخٌ مـن الـوَضر[5]

---

(1) الظليم: ذكر الناقة.

(2) الاستدراك من ت.

(3) في ت: (بأحداق).

(4) السـنطير والسـنطور؛ آلـة موسـيقية تشـبه القـانون، أوتارهـا مـن النحاس، مولد (القاموس الوسيط: س ن ط).

(5) الوضر: الدنس.

ترابها المسك بل أنقى وجاد بها

صوبُ الغمائم بالآصال والبُكُرِ

نلفي[1] الخيام بها صفت مبانيها

صارت بها الأرض كالسماء بالزُّهُرِ

قال الألى قد مضَوا قولاً وصَدَّقَهُ

نقل وعقل وما للحق من غِيرِ

الحسنُ يظهرُ في شيئين[2] رونقُهُ

بيتٌ من الشعر أو بيت من الشَّعَر

أموالنا[3] إذ تروح بالعشي

أصواتها كدويِّ الرعد بالسحر

سفائن البر بل أنجى لراكبها

سفائن البحر كم فيها من الخطر

---

(1) في ت:

نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت

مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

(2) في ت: (بيتين).

(3) في ت: (أنعامنا إن أتت عند العشي تخل...).

لنـــا المهـــاري[1] كـــما المـــها

بهـا وبالخيـل نلنـا كـل مفتخـرِ

وخيلنـا دائــماً للحــرب مُســرَجَةٌ

من اسـتغاث بنـا بشـره بـالوطرِ[2]

بعنــا الحضــارة بيعــاً لا نراجعــه

بالعـز والعـز مـا ينـال بالحضـر[3]

نحـن الملـوك فـلا تعـدل بنـا أحـداً

وأي عـيشٍ لمـن قـد بـات في خَفَـرِ

لا نحمـل الضـيم ممـن جـار نتركـه

وأرضَــه وجميــعُ العــزِّ في الســفر

وإن أســاءَ علينــا الجــار عِشــرتَه

نبــين عنــه بــلا ضــر ولا ضــررِ

ما في[4] البداوةِ مـن عيـبٍ تُـذمُّ بـه

إلا المــروءةَ والإحســانَ بالبِــدَرِ[5]

---

(1) في ت: (وما للريم سرعتها).

(2) في ت: (بالظفر).

(3) سقط البيت من ت.

(4) جاء ترتيب البيت مختلفاً عن ت.

(5) البِدَر: جمع بِدْرة: كيس النقود.

تبيــت نــارُ القِــرى تبــدو لطارقنــا

فيها المداواةُ مـن جـوع ومـن خَصـر[1]

عـــدونا مـــا لـــه ملجـــا ولا وَزَرٌ

وعنـــدنا عاديـــاتُ السَّـــبقِ والظفـــرِ

شرابُهـــا مـــن حليـــب مـــا يخالطُـــهُ

مـــاء ولـــيس حليـــبُ النـــوق كـــالبقرِ

أمـــوال أعـــدائنا في كـــل آونـــةٍّ

نحـــن نُقَســـمها[2] بالعـــدل والقَـــدَر

وصِـــحّةُ الجِســـمِ فيهـــا غـــير خَافيـــةٍ

وكل عيـبٍ وداءٍ فهـو في الحضـر[3]

منـــا الـــذي لم يمـــت بـــالطعن[4] عـــاش

فـــنحنُ أطـــولُ خلـــقِ الله في العُمُـــرِ

---

(1) الخَصر: البَرْد في أطراف الأصابع.

(2) في ت: (نقضي بقسمتها).

(3) في ت: (والعيب والداء مقصور على الحضر).

(4) في ت: (من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى).



السلطان العثماني عبد المجيد يقبل دخول الأمير لمملكته

ثم إن ملك الدولة الفرنسية نابليون لما تمت له المملكة على دولته، لم يبق له معارض، اختار تسريح الأمير ليوفيَ له بالشرط الذي كان اشترط الأمير على دولته، حين تسليم نفسه إليهم، خشية أن تبقى دولته مذمومة بإخلافها الوعد، ونقضها العهد، ويخلد ذلك في كتب التواريخ، كما فعلت دولة إسبانيا مع أهل الأندلس، فإن ملكها نقض في مدة يسيرة عهده، وأبقى فعله القبيح مسطراً إلى انتهاء الأبد.

ثم استأذن نابليون الدولة المصرية في قبولها دخول الأمير لمملكتها، فأبى واليها محمد علي باشا ذلك.

فاستأذن نابليون شوكة السلطان عبد المجيد خان في قبوله دخول الأمير لمملكته، فأذن له في ذلك، فبعثه إليه ليجعله تحت مراقبته، وليكون كالكفيل له.

وبعد أن قبل حضرة السلطان دخوله لمملكته استحسن نابليون أن يفرِّق بينه وبين إخوته، فأخذهم من

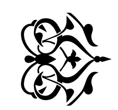
إمبـــواز إلى الجزائـــر، وأســـكنهم مدينـــة بونـــة لـــيجعلهم كـالمرهونين، ويبقـيهم فيهـا قطعـاً لألسـنة أربـاب دولتـه وتأمينـاً لهم، وتسكيناً لأفئدتهم كـي لا يحصـل لهـم مـن الأمـير أدنـى نكـد أو تشويش مـع وجـود إخوتـه تحـت قبضـتهم، وحسـماً لمـا تعطيـه أفكـارهم مـن كـون الأمـير لا يصـبر عـن العـود إلى وطنـه ومحـل إمارته وعزّه، وأنـه بمجـرد خروجـه للـبلاد الإسـلامية يرجـع إلى الجزائر، وكانت أفكاره هو غير أفكارهم.

ولم يلبـث الأمـير بعـد تفرقـة إخوتـه إلا ثلاثـة أشـهر وجاءه ملـك فرنسـا نـابليون ومعـه وزيـره إلى محلـه، وهـو بـذلك القصـر بقريـة إمبـواز[1]، وأعطـاه ورقـة تسـريحه بيـده، حيـث إنه لم يسمع من جميع وزرائه وأربـاب دولتـه أدنـى إنكـار عليـه لمـا فعلـه مـن تسـريح إخوتـه إلى الإقلـيم الجزائـري، ولا سـمع في جرنـال[2] (صـحيفة) إنكـار ذلـك عليـه في مـدة تلـك الشـهور الثلاثة.

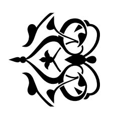
---

(1) في الأصل: (انبواز).

(2) تعني الصحافة.



مغادرته باريز إلى الآستانة



وكان تسريح الأمير إلى الآستانة سنة 1269هـ، وقبل خروجه من باريز عاصمة ملكهم حلَّفه نابليون على المصحف الشريف على أنه لا ينقض العهد ويحارب الدولة الفرنسية مدة حياته، ولا يرجع إلى الإقليم الجزائري أصلاً، ثم أهداه سيفاً مجوهراً وقال له: ما أظن أنك ترجع إلينا وتضربنا بسيفنا، فأجابه الأمير بقوله: وهل بعد الإحسان يفعل فيه أدنى مروءة أو كمال عقل ورتب له نابليون في السنة خمسة آلاف ليرة على أن تصرف له مشاهرة. ثم ودعه وسافر إلى الآستانة في مراكب[1] حربية.

ومرَّ في طريقه على جزيرة صقلية من بلاد الطليان[2]، وذهب إلى المحل الذي تنبع فيه النار من أراضيها، وشاهد في ذلك من وافر قدرة المولى ما يبهر العقول، ورأى النار تَقذف بالصخرة العظيمة، فتُصعدُها إلى جو السماء، ثم تسقط على

(1) في الأصل: (مركب).

(2) في الأصل: (الطاليان).

الأرض وتصير رماداً، وهـذه النـار كلـما مضـت مـن الزمـان تتبـع في تلك الأرض من محـل غـير المحـل الأول، وتبقـى فيـه شـهوراً، ثم تنبع من غيره وهكذا.

ثـم لمـا قضـى وطـره مـن مشـاهدة هـذه الآيـة البـاهرة سافر إلى أن وصـل إلى بلفـاز الآسـتانة، فـأبقوه ثلاثـة أيـام لأجـل انتظـار الإذن لتلـك المراكـب الحربيـة في الـدخول إلى البلفـاز، فـأُذن لهـا في الـدخول، فـدخلت، فلـما أرسـت بمرسـى الآسـتانة أطلقـت عـدة مـدافع إعلانـاً بقدومـه، فقوبلـت بمثلهـا ثـم دخلهـا، وذلـك نهـار الجمعـة سـابع عشـري ربيـع الأول سـنة 1269هـ، فاحتفـل بـه غايـة الاحتفـال، واجتمـع بحضـرة السلطان عبد المجيد، فرحب به، وأكرم نُزُلَهُ.



سكنه في بروسة

ثـم قـال لـه: إننـا قـد اخترنـا لـك أن تسـكن في مدينـة بروسـة مـن مملكتنـا، فتوجـه إليهـا، ووصـلها نهـار الاثـنين سـابع ربيع الثاني مـن السـنة المـذكورة، وسـكنها محترمـاً معظـماً بهـا لـدى الخاص والعام إلى أن وقعت بها زلازل هائلة خرّبت معظمها.



سكنه دمشق

فحينئذ طلب الأمير الانتقال منها إلى دمشق الشام، فأذن له، فتوجه إليها، ودخلها في العشرين من ربيع الأول سنة 1272هـ بأهله وخدمه وحشمه، واتخذها دار إقامة.

ولما دخلها أطلقت من قلعتها عدة مدافع إعلاماً بقدومه واستبشاراً، وأقام بها على غاية ما يكون من العز والاحترام عند الخاص والعام، تقصده الوفود من جميع الأقطار، وتتزاحم على رحابه أقدام العلماء والأشراف والفضلاء، والأكابر وأرباب الحاجات، فيكرم الجميع، وينزل كل إنسان منزلته، ومُدح بقصائد لو جمعت لبلغت مجلداً، وكان يجيز على الشعر الجوائز العظيمة، ويعرف للشعراء حقهم، ويعظمهم، وكان له الجاه العظيم عند جميع الملوك، يحمي الذمار، وينصر المظلوم مِمَّنْ بَغَى عليه.

وجاز شمساً[1] في كل ملأ قمراً نيّراً في سماء العلى، ذا نفس زكية وأخلاق هاشمية رضية، جزيل الصدقات، عظيم

---

(1) في الأصل: (وجاز شمساً)، ولعلها: وصار شمساً.

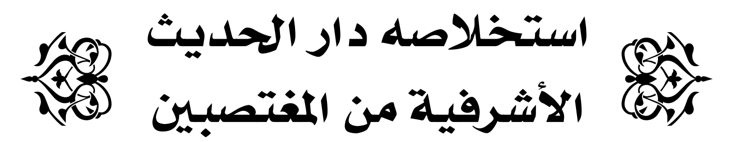
الإحسان والمبرات، فارساً شجاعاً ليثاً في الهيجاء، موئلاً عظيماً لمن إليه أوى والتجأ.



زيارته القدس والخليل

ثم في سنة 1273هـ توجه لزيارة بيت المقدس والخليل.

ثم رجع إلى دمشق، وأقبل على قراءة الكتب الحديثية كالبخاري ومسلم.



استخلاصه دار الحديث الأشرفية من المغتصبين

وكان قسم من دار الحديث [الأشرفية] قد استولى عليه بعض الأجانب، فسعى في استخلاصه منه، ببذل أموال طائلة(1).

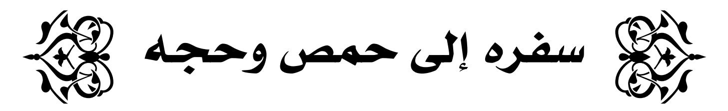
---

(1) للتوسع في هذه القضية انظر كتابنا (دار الحديث الأشرفية) دار الفكر – دمشق.




حادثة سنة 1860م المعروفة بطوشة النصارى

وفي سنة 1277هـ وقعت الواقعة المشهورة بدمشق، وهي حادثة فوق العادة، فبذل الأمير جهده في إسعاف المسيحيين قياماً بما يوجبه أمر الدين ولشجاعته وحسن تدبيره تيسر إنقاذ ألوف منهم، فأهدته الدولة العلية وسائر الدول العظام علامات الشرف من الدرجة الأولى.

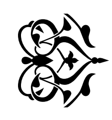


سفره إلى حمص وحجه

ثم سافر إلى حمص وحماه، وزار ما بها من المشاهد، ثم في سنة 1279هـ توجه إلى الحجاز متجرداً لطلب المرشد [الشيخ محمد الفاسي الشاذلي]، وبقي هناك سنة يقيم بمكة تارة، وبالمدينة المنورة تارة، وانقطع ثمة إلى الله كل الانقطاع، واستعمل بمكة المشرفة خلوات[1]، فكان يذهب إلى غار حراء يعتكف به ليالي متعددة.

---

(1) جملة معترضة ليس لها علاقة بالسياق أخرجتها إلى الهامش: (ثم سأل من شريف مكة أن يعطيه جملة من العسكر).



اجتماعه بالشيخ محمد الفاسي وسلوكه عليه



وصادف بمكة العارف بالله تعالى المرشد الناصح الشيخ محمد الفاسي الشاذلي قدس سره، فأخذ عنه الطريقة الشاذلية وانتفع به، وفتح عليه بسببه وبما سلف له من الخلوات قبل ذلك الفتح الكبير الذي [لم] يسمع بمثله في أهل عصره، وأعظم شاهد على ذلك كتابه المسمى بـ(المواقف العرفانية) ففيه ما يبهر العقول، ويحير أفكار الفحول، من الواردات وأسرار التنزلات، وقد بلغ ثلاثة مجلدات[1]، (وكنت[2] نقلتها بخطي تبركاً، وقرأتها على أخص أصحاب الأمير، وهو شيخنا صوفي زمانه، ومرشد أوانه الشيخ محمد بن محمد الخاني النقشبندي حرس المولى وجوده، وهو سمعها مع غيرها من معظم كتب الحقائق كالفتوحات وسواها على حضرة الأمير قدس سره).

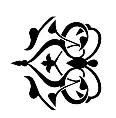
---

(1) طبع أكثر من طبعة في مصر ودمشق وبيروت.

(2) هذا كلام الشيخ جمال الدين القاسمي.



دعوته لزيارة نابليون بباريز



ثم في سنة 1281هـ بعث ملك فرنسا نابليون إلى سعادة بالسفر إلى باريز، فذهب على طريق الآستانة، وواجه حضرة السلطان عبد العزيز خان[1]، فأكرمه وعظمه، وأعطاه أكبر وسام عنده، وسعى في تسريح من نفوا من أكابر دمشق في الواقعة المتقدمة[2]، فأجيب إلى ذلك، وشكر سعيه.

ثم سافر من الآستانة إلى باريز، ففشا الخبر عند جميع الفرنسيين بأن نابليون أتى بالأمير من دمشق ليرجعه إلى وطنه بالجزائر، ويجعله والياً عليها، فلما وصل الأمير إلى باريز جاء لزيارته أحد وزراء الدولة الفرنسية، وأخبره بأن في نية نابليون أن يوليك على الجزائر، فإياك أن تقبل ذلك الآن، لأنك إن قبلت ذلك منه في وقتنا، هذا جعل عليك شروطاً شديدة، واصبر إلى غير هذا الوقت، فإن دولتنا لا بد أن تحتاجك وتوليك عليها بأقل شرط. ولم يعلم هل ذلك من الوزير خديعة، أو نصيحة للأمير، والله أعلم.

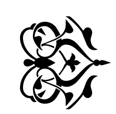
---

(1) هو السلطان الذي تلته خلافته السلطان عبد المجيد.

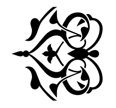
(2) هي واقعة 1860م التي نفي على إثرها عدد من أعيان دمشق.

فلما واجه الأميرُ نابليون قال له: إنني أريد أن أُوَليك الجزائر، فأبى الأميرُ واعتذر له بأنه كبير السن لا يقدر على حمل ثقل التولية والإمارة، فقال له: قد أجبتني بلسانك لا بقلبك، ثم رجع الأمير إلى الشام بعدما حصل له من نهاية التعظيم والإكرام، ثم توجه من باريز إلى لندره[1]، فاحتفلوا به غاية الاحتفال.

ثم عاد إلى الشام، ومن ذلك الوقت قويت المناسبات بينه وبين ملوك أوروبا[2] والرؤساء المشهورين هناك، فكان ذلك وسيلة لقضاء حوائج المسلمين الذين هم في مستعمراتهم، وحصل لهم بذلك من المنافع مالا يوصف.



حضوره افتتاح قناة السويس



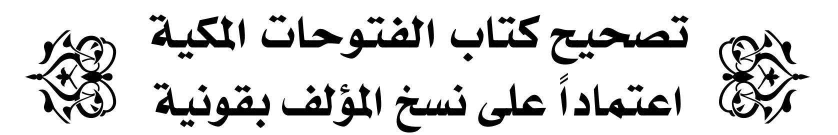
ثم في سنة 1286هـ فتحت الدولة الفرنسية خليج السويس، وذلك في عهد إسماعيل باشا والي الديار المصرية، ودعت الدولة الفرنسية ملوك الدول لحضورها زينة فتحه،

---

(1) المقصود مدينة لندن.

(2) في الأصل: (أوربا).

ومـن جملـة مـن دعـي لـذلك سـعادة الأمـير، وبعـث نـابليون زوجتـه عوضـاً عنـه، وجـاء ملـك النامسـا (النمسـا)، وملـك اليونـان، وملـك بروسـيا، وبعـث ملـك الموسـكوف مـن يقـوم مقامـه بـذلك المحفـل، ودخلـت تلـك الملـوك في بوابيرهـا، وكـذا سعادة الأمير في بـابور مسـتقل مثلهـا، وأول بـابور مـرَّ فيـه بـابور زوجة نابليون تعظيماً لها عـلى قاعـدة الإفـرنج، ثـم ملـك اليونـان لكبر سنه، ثـم بقيـة الملـوك المـذكورين، وكـل بـابور عليـه علامـة وهيئـة غـير الثـاني، ومـر الأمـير كـذلك في بـابور عـلى هيئـتهم، ووصفهم من غير فرق، ثم عاد إلى محلِّ إقامته مبجلاً معظماً.



تصحيح كتاب الفتوحات المكية اعتماداً على نسخ المؤلف بقونية

وفي سـنة 1288هــ أرسـل نسـخة مـن الفتوحـات المكيـة مـع شـيخنا العلامـة الشـيخ محمـد الطنطـاوي، وأصـحبه الشـيخ محمـد الطيـب ابـن الشـيخ محمـد المبـارك المغـربي إلى مدينـة قونيـة لمقابلتهـا وتصـحيحها عـلى نسـخة موجـودة هنـاك بخـط مؤلفهـا الشـيخ الأكـبر قـدس الله سره، وبعـد تصـحيحها بكـل إتقـان عـادا إلى دمشـق، ثـم قرأهـا الأمـير في داره عـلى بعـض الخـواص من العلماء، فحصل لهم بذلك نفع عظيم.



دعوته لزيارة أمريكا

وكانت ملوك الإفرنج تأتي إلى بيت الأمير في دمشق لتراه، وجاء ملك أمريكا إلى دمشق على جهة السياحة، واجتمع معه في بيته، وحثه كل الحث أن يذهب إلى بلاده لأجل التفرج والتنزه بها، فتعلل له، فقال له: متى أردت ذلك، فابعث لي خبراً لأرسل بابورين ليحملاك وجميع من تحب إلى قطرنا.



فضائله

وبالجملة فكان له من الحظ الديني والدنيوي ما يَكِل القلمُ عن وصفه، وكان قدس الله سره قويَّ الجسمِ، جميلَ الصورةِ، عالماً عارفاً تقياً شاعراً ناثراً، حسنَ الخلق، شارك ذوي المناصب العلية المقتضية للتقدم في سائرها، لم يجتمع في إنسان من أهل عصره، وأهل زمانه ما اجتمع فيه، له الحظ العظيم والرأي المستقيم، صوامٌ قوامٌ، صاحب خلوات ورياضات، حاضر القلب، مع أنه في الجَلوات جاهدَ في الله حق جهاده، وكان نفاعاً للعباد، لا يبخل بجاهه عن أحد، وكان مقبولَ الشفاعة، نافذَ الكلمة.

ومن عجيب ما اتفق له؛ أن امرأة من أهل دمشق جاءته، وأخبرته بأن رجلاً من أهل بخارى اسمه فلان، جاء إلى دمشق وتزوج بها وأَولدَها ذكراً، ثم إنه ذهب وتركها، ولا تدري أين تَوَجَّهُ، ولم يعطها نفقته، وهي فقيرة، وأخبرته بأن زوجها أخبرها بأن أباه من معتَمَدِي تُجَّارِ بخارى، فانتدب الأمير لتفريج كربها، وكتب بذلك لوكيل بخارى بالآستانة، وهو كتب لوزير بخارى بشأنها، فأحضر الوزير أبا الزوج، والزوجَ وأمره بأنه إما أن يبعث لها ولولدها النفقة، وإما أن يطلقَها ويُكمِلَ لها مهرَها، والنفقةَ، ففعل الزوجُ وطلقَها، وبعث لها ما ذُكِرَ على يديه إلى دمشق، ومثل هذا لم يتفق لغيره.

وبالجملة فقد جمع الله له بين الشرف، والعلم الظاهر والباطن، والمعرفة والتقوى والجمال والغنى والكرم، والشجاعة والقوة والفروسية، وكمال العقل والتأني في الأمور، والحظ الوافر والجاه العظيم.



وفاته

ولم يزل على هذه الأوصاف السنية والأخلاق الرضية إلى أن أتاه اليقين في منتصف ليلة السبت 19 من شهر رجب الفرد، سنة 1300هـ، وذلك في قصره الكائن قرب قرية دمر[1] بعد أن مرض نحو شهر في حصر البول، وكان مشتغلاً في مدة المرض بالمُراقبة والذكر، ولم تبد منه شكوى، وإنما كانت تلوحُ عليه سيما الاستبشارِ بلقاء الله تعالى، والرضا بأحكامه، وقد تولى غسلَه في داره في محلة العمارة بدمشق نزيلُه الشيخُ عبدُ الرحمنِ عليش أحدُ علماء الأزهر، وحمل نعشه على أعناق الرجال إلى الجامع الأموي، وبعد الصلاة عليه شيعه أهلُ دمشقَ بغاية الاحتفال والتعظيم إلى الصالحيةِ، ودفن في تربةِ سلطانِ العارفينِ الشيخِ الأكبرِ محيي الدينِ بنِ عربي لصيق ضريحه[2]، ورُثيَ من سائرِ الجهاتِ بالقصائدِ والمنظوماتِ.

---

(1) بالضواحي الغربية لدمشق.

(2) يقول محمد مطيع: حدثنا أستاذنا أحمد راتب النفاخ أن الذي أشار بدفنه لصيق ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي هو مفتي دمشق الشيخ محمود حمزة نقيب السادة الهاشميين.



ولادته ونشأته

وكانت ولادته في رجب سنة 1223هـ في قيطنة من ضواحي مدينة معسكر من مدن جزائر الغرب، وتربى في ربا الشرف والولاية، وتقوى في مهد التقوى والهداية، ثم حفظ القرآن المجيد، وعكف على تحصيل العلم، وبذل نفسه في المجاهدة، وبمجرد ما حصلت المَلَكة وردت عليه المملكة فاشتغل بها، ومع ذلك لم يُعرض عن العلوم حتى صار يعبر عنه أهل إقليمه بأن رِجله في الركاب، ويدَه في الكتاب، وكان ساحَ مع والده الجليل في بلاد المشرق سنة 1241هـ فوصلا إلى مكة المكرمة، ثم جاءا إلى دمشق صحبةَ ركبِ الحجِ الشامي، وكان عامئذٍ في الركب حضرةُ علامةِ الدنيا ومرشدُها الشيخُ خالدٌ النقشبندي، فاجتمعا عليه في مَعانَ راجعين من مكة، ولما قدما إلى دمشق أخذا منه الإذن في الطريقة النقشبندية، وأدخل والده الرياضة، واختلى في جامع المرادية، المعروف بمحلة السويقة، وكانا نازلين عند أحد وجوه المغاربة بالمحلة المذكورة، ثم توجها إلى بغداد لزيارة الغوث القطب عبد القادر الجيلاني قدس الله سره، ثم

[حجَّا] الحج مرة ثانية، ثم [عادا] إلى بلادهما، إلى أن استولى الفرنسيون على الجزائر، ووقع ما مضى شرحه.

وخلّف رحمه الله عشرةً من البنين، وستاً من البنات، وزوجةً وأربعَ أمهاتِ أولاد.

وكان طيب الله ثراه مربوعَ القامة، معتدلَ الجسم، أبيضَ اللون، أسود الشعر، كثَّ اللحية، أقنى الأنف، أضبطَ؛ أي يعمل بيساره جميع ما يعمله بيمينه، أشهلَ العينين، يمشي الهوينى.

وكانت له مبرات كثيرة من جملتها أنه كان يوزع مئتي ليرة في كل شهر على العلماء والفقراء، فضلاً عما كان ينفقه في وجوه البر، وكان خَرْجُه أكثرَ من دخله الوافر، حيث توفي وعليه ديونٌ اقتضت بيع بعض أملاكه لوفائها، وهذا أكبرُ دليل على وفور كرمه.

وكان يعظم أهل العلم، حسنَ المسامرة، لطيفَ المعاشرة، لا يردُّ سائلاً، ولا يخيب قاصداً، لا ينسى أحداً من الذين تعودوا إحسانه، ولم يكن عنده شيء من الكبر الذي

تنزهت عنه نفسه المطمئنة، ولا يتأنق في الملابس والمطاعم لتحققه بالزهد والتواضع.

وله رحمه الله خلوة في منزله بقرية الأشرفية صحنايا كان يتحنث بها في شهر رمضان مع العزلة التامة.

وله قدس الله سره تآليف مفيدة، أشهرها (المواقف) في التصوف. وتعليق على حاشية لأحد أجداده في علم الكلام، و(المقراض الحاد) و(ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، ومن اطلع على هاته المؤلفات عرف قدر فضله، وسعة علمه.



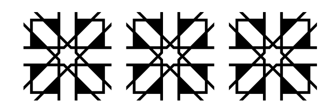
وكان وفاة والد الأمير السيد محيي الدين سنة 1249هـ عن اثنين وخمسين عاماً، وكان عالماً زاهداً عابداً محدثاً مربياً صوفياً، تشد إليه الرحال ذا أبهة وصولة وعظمة، وقد كساه الله تعالى من الهيبة والعظمة عند أهل إقليم الجزائر ما لم يتفق لغيره.

وكان مقصوداً لقضاء الحوائج الدينية والدنيوية، وناهيك أنه طُلِب أن يتولى الملك لأهل إقليمه لَمَّا استولت

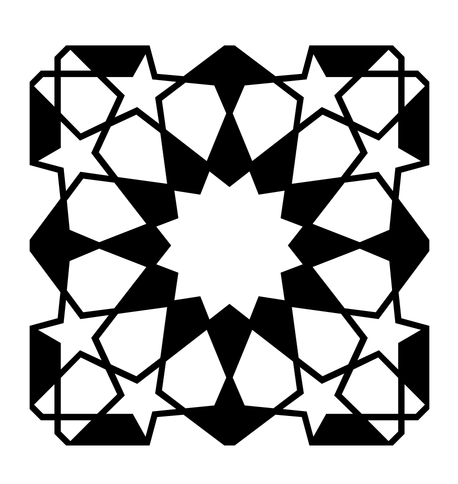
عليه الفرنسيون، ولا زالوا به مدة أربع سنوات[1] وهو يمتنع، ولما رأى الأمر متعيناً عليه أذن لولده الأمير كما ذكرنا فيما تقدم.

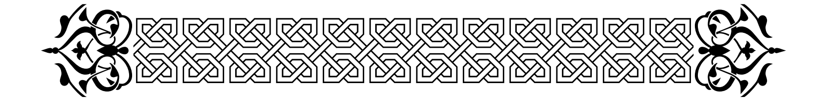
وفي هذا القدر من سيرة الأمير كفاية، وإلا فتفصيل سيرته يحتاج إلى مجلدات، أفاض المولى على روضته كواملَ غيوثِ الرحماتِ.

بحمده تعالى قد عُورِض هذا الجزء بأصله، وتم العِراضُ في رابع شوال سنة 1318هـ. كتبه جامعه جمال الدين القاسمي.

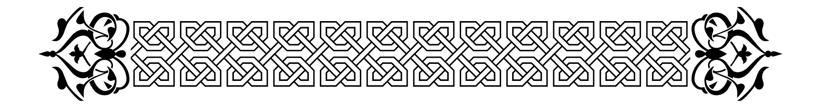


(1) على أنه سلف أن ذكر المصنف أن مدة عرض الولاية عليه استمرت ثلاث سنوات.





نماذج من مخطوط ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب (نُخبة ما تُسـرُّ به النواظر) -الكتاب التام- تأليف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني، وهي بخط الشيخ جمال الدين القاسمي في كتابه الموسوعي (تعطير المشام)





بهجة القبيات رحمه الله تعالى الامير السيد عبد القادر بن السيد محي الدين
ابن السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد المختار الحسني الجزائري
قدس الله سره العزيز فرع دوحة الشرف الزاهر، وطراز عصابة الحسب
الباهر، امير المجاهدين فى الاقطار المغربية، والقائم بنصرة الدين بالهمم العلية، المشكورة [illegible]
الله مساعيه الحسنة، والمتفقة على كمال وصفه الاراء والالسنة، العريق
فى الرياسة والسياده، والحقيق بارتداء [illegible] الفخر والسعاده، الجامع
بين العلوم الظاهرة والباطنة، والمتضلع من اسرار المعارف الكامنة، محيي
معالم الجود والكرم، ومجدد محاسن الاخلاق والشيم، وارث رتب المجد كابرا
عن كابر، سلالة المفاخر، التى طاب اولها وزكا الآخر، محط رحال الفضلا، وموئل القصاد و[illegible]
من طارقيه فى سائر الممالك، ونشرت حصاة فضله فى اقاصى العمران والمسالك، ومن [illegible]
شهد بفضلها الخاص والعام، ومآثره ترتفع على الثريا وتكاثر الغمام، قدس الله روحه
وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، لا ريب ان سيرة هذا الامير تحتاج الى
تاليف كبير، وقد بلغنى ان احد انجاله الكرام الف فى ذلك كتابا حافلا بديع الانتظام،
[illegible] انه لم تشرق من كنزه مطالعه، ولا اسفرت من خزائنه طلائعه، وقد يسر الله تعالى لنا
صحبة اخى الامير، المنوه به العالم العامل التقى، والفاضل النحرير النقى، بهجة الشرفا،
وتاج اللطفا، ذى المجد السنى، السيد احمد الحسنى، حفظه الله تعالى فلم تبرح تضمنى
واياه مجالس حسنه، فيما يقرب الى الآن من خمس عشرة سنه، وسنا كثيرا ما نعطر مجامعنا
بأريج سيرة اخيه الامير المشار اليه، ونتروح بعجائب تلك الوقائع التى مرت عليه، ولما
جمعت هذا التاريخ، اشرت على جنابه بجمع ترجمة لسعادة اخيه الامير، وما شاهده
[illegible] سيرته فى توليته ولا ينبئك مثل خبير، فانتدب حرس المولى علاه، وصنف فى ذلك كتابا
رشيقا مبناه، رقيقا معناه، سماه نخبة ما تسر به النواظر، وابهج ما يسطر فى الدفاتر
[illegible] بيان توليته ذى الكمال الظاهر، والنسب الطاهر، سعادة الامير [illegible]

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِه النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

ابن السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد المختار صح

الامير السيد عبد القادر بن السيد محيي الدين الحسني الجزائري قدس الله سره العزيز
فرع دوحة الشرف الزاهر، وطراز عصابة الحسب الباهر، امير المجاهدين في الاقطار المغربية
والقائم بنصرة الدين[7]، المشكورة في سبيل الله مساعيه الحسنه، والمتفقة
على كمال وصفه الاراء والالسنه، العريق في الرياسة والسياده، والحقيق بارتداء
الفخر والسعاده، الجامع بين العلوم الظاهرة والباطنه، والمتضلع من اسرار المعارف
الكامنه، محيي معالم الجود والكرم، ومجدد محاسن الاخلاق والشيم، ووارث رتب المجد
كابرا عن كابر، سلالة المفاخر التي طاب اولها وزكا الآخر، محط رحال الفضلاء ومؤمل
القصاد والنبلاء، من طار صيته في سائر الممالك، ورنت حصاة فضله في اقاصي
العمران والمسالك، ومحاسنه شهد بفضلها الخاص والعام، ومآثره ترتفع على الثريا
وتكاثر الغمام، قدس الله روحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، لا ريب ان
سيرة هذا الامير تحتاج الى تأليف كبير، وقد بلغني ان احد الاجلة الكرام، الف في ذلك
كتابا حافلا بديع الانتظام، بيد انه لم تشرق من كنزه مطالعه، ولا اسفرت من خزائنه
طلائعه، وقد يسر الله تعالى لنا صحبة اخي الامير المنوه به العالم العامل التقي والفاضل
الغرير النقي، بهجة الشرفاء وتاج اللطفاء، ذي المجد السني، السيد احمد الحسني،
حفظه الله تعالى فلم تبرح تضمني واياه مجالس حسنه، فيما يقرب الى الآن من [illegible] عشرة
سنه، [illegible] وكنا كثيرا
ما نعطر مجامعنا بأريج سيرة اخيه الامير المشار اليه، ونتروح بعجائب تلك الوقائع التي
مرت عليه، ولما جمعت هذا التاريخ اشرت على جنابه بجمع ترجمة لسعادة اخيه الامير،
وما شاهده من سيرته في توليته ولا ينبئك مثل خبير، فانتدب حرس المولى علاه، وصنف
في ذلك كتابا رشيقا مبناه، رقيقا معناه، سماه نخبة ما تسر به النواظر، وابهج ما يسطر
في الدفاتر، في بيان تولية ذي الكمال الظاهر، والنسب الطاهر، سعادة الامير السيد
عبد القادر بن محيي الدين في اقليم الجزائر، وسبب تسليمه فيه ما ثبت لديه من الاخبار
الصحيحة التي حصلها، والحوادث التي شاهدها وابصرها، وقدم[7] في طليعة الكتاب تقلب
الاحوال على اقليم الجزائر بالاجمال، مما لا يستغني عنه المتعطش لتلك الآثار، التي
هي من عجائب ما ابدته يد الاقدار، ولنذكر شذرة من عقدها الفريد، تمهيدا لتولية
الامير وتتميما لفائدة بنائه الحميد، قال حفظه الله تعالى لما احتدت دولة اسبانيا للاستيلاء
على اقليم الاندلس ارسلت للدولة العلية العثمانية كبراء ذلك الاقليم يستنجدونهم فارسلت
لهم نجدة لعظيمة الا انه ابطأ قدومها فلما توسطت تلك النجدة البحر سمعت بان اسبانيا تغلبت
على جميع ذلك الاقليم فرجعت تلك النجدة الى الجزائر فملكتها وملكت تونس ومن وقتئذ صارتا
وجميع اقليمهما تحت الدولة العثمانية وقد كانت تلاشت دولة بني عبد الواد من تلمسان
كما تلاشت الدولة الحفصية من تونس وذلك في اواخر قرن [illegible] ولما ملك
العثمانيون الجزائر حولوا الهيئة الملكية من تلمسان الى الجزائر لوقوعها على ساحل البحر فعظم
تمدنها بذلك زيادة على ما حصل لها من التمدن بسبب توطن مهاجري الاندلس بها وكانت
قديما

[7] بالهمم العلية صح

[7] فضله صح

[8] التسعمائة صح

بني زيان الملقبين صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

قديما قرية محشوشنة تسمى بقرية بني مزغنة وبعد تمهيد العثمانيين لها وجعلها قاعدة ذلك
الاقليم بدت بها الصنائع الغريبة والاشياء المزخرفة العجيبة والابنية المشيدة والاسرة المنضدة والحصون المنيعة والقلاع الوثـ[يقة]
وقد جبى اليها خراج ذلك الاقليم مدة ثلاثمائة وسبعة وثلاثين سنة واستقر الملك بها
في المدة المذكورة وكانت في المائة الاولى وبعدها بقليل تحت ادارة الدولة العثمانية بحيث
ان واليها يتولى من طرفها ويعزل بامرها وكانت سيرتهم في ذلك الاقليم وقتئذ محمودة لعدلهم
في الرعية وحسن سياستهم ثم بعد ذلك استقلت تلك الاتراك الذين تولدوا باقليم
الجزائر ولم يبق بينهم وبين الدولة العثمانية اتصال الا بالخطبة باسم السلطان العثماني
وضرب السكة باسمه وصاروا يولون الوالي مدة ثم اذا شاؤا قتلوه وولوا غيره ومن
غريب ما اتفق لهم انهم في يوم واحد ولوا سبع ولاة واحدا بعد واحد ولم يتم الامر للسابع
ثم طغت تلك الامراء وتجرت آحزامها على الرعية واكثرت من الظلم والعدوان وسفك
الدماء بغير حق وعثت في الاقليم وفسدت فاهلكت الحرث والنسل ولاسيما قبل انقطاع
دولتها فقد اشتد ظلمها غاية الاشتداد حتى بلغ النهاية وذلك علامة على الخراب
سريعا كما هي عادة الله تعالى في خلقه يقال ان الملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم
قال تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميرا ثم انتقم الله تعالى من اولئك الظلمة وشتت شملهم واصبح ملكهم هباء منثورا
وقد كانت لها الرفعة والسطوة العظيمة في ذلك الاقليم برا وبحرا حتى ان مراكبها
كانت كلما صادفت مركبا من المراكب الافرنجية في البحر اورأته من بعيد تتوجه اليه
ثم تطلق عليه صواعقها النارية فتغرقه او تغتنمه وقد عظمت سطوتها في البحر
على جميع الدول الاروبوية وكانت مراكبها مصحوبة بالظفر والنصر اينما توجهت
بحيث انها لا تكسر لها راية في البحر اصلا وبذلك عظم طغيانها وربما غزت مراكبها
بعض الجزر البحرية فتغنم ما فيها وتحملها مع اهاليها اسرى الى الجزائر وقد تقصد
مراكبها بعض المحلات المهجورة من البلاد الافرنجية فتخرج منها ليلا الى بعض
ضيعهم القريبة من البحر فتفعل مع اهلها ما تقدم وترجع وفي يوم دخولها
تجعل لها زينة عظيمة بالبلد وتصلب رئيس الضيعة او المركب الذي غنمته
وتجعله بصدر السفينة عند الدخول ليراه الناس مشنوقا ثم لما اكثرت من ذلك
الفعل واشتد ذلك على الافرنج وعظم لديهم اذ كانت اسرت منهم خلقا كثيرا
بسبب ذلك جاءت الدولة الانكليزية الى الجزائر قاصدة الانتقام واظهرت
صورة السلم ونصبت علامته واشهرتها مكرا وخديعة فاذن لها في الدخول
الى المرسى فدخل ثلاث مراكب من مراكبها الحربية وكان ذلك النهار يوم عيد
والناس على غاية ما يوجد من السرور ثم بعثت مكتوبا لوالي الجزائر عمر باشا
وانتظرت جوابه بسرعة وكانت جعلت لذا اجلا لرد الجواب ثم ما لبثت تلك
المراكب الا برهة يسيرة بعد وصول المكتوب اليه وبمجرد قراءة المكتوب وامر
الوالي برد جوابه واذا بالصواعق النارية ارسلت متتابعة بعضها بعضا
بلا فترة متعللين اصحابها بعدم السرعة في رد الجواب ولدخولها تحت المرسى لم يتمكن

ينصبون واحدا ثم يعزلو[نه]
ويقتلونه ويولون غيرهم
صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

لقلاع البلد تغريقها اذ كان المرمى يتجاوزها فحصل بسبب ذلك للاهالي وللحكومة اضطراب
عظيم وتشويش بليغ لاسيما وقد حصل ذلك على غفلة وعدم اهبة حتى اضطرهم الحال
الى ان صاروا ينزلون المدافع من بعض الحصون بالحبال لاجل ان يتمكنوا من ضرب
تلك المراكب واصابتها وصارت الاهالي تهرب مما ظهر من نواتي تلك المراكب وسائرها
بالبواريد فلم يغن اطلاق الرصاص من الاهالي عليهم شيئا وقد خربت تلك المراكب
مع قلتها جملة من البيوت المرتفعة وبعض شواهق الحصون ثم وقع الصلح بينهما
على انهم يسلمون اليها جميع ما في الجزائر وبجاية من الاسرى وان كانت من غير دولتها
ثم خرجت تلك المراكب من المرسى اذ لا قدرة لها على اكثر مما فعلت ولا غرض لها ازيد
من ذلك اذ لا يمكنها هي ولا غيرها اخذ الجزائر وقتئذ لان قلوب الاهالي كانت
لم تتفق على بغض حكومتها حيث ان الظلم كان خفيفا يمكن للرعية تحمله ولا يمكن
لدولة من الدول ان تستولي على اقليم من الاقاليم مع اجتماع كلمة اهله ولو بلغت
ما بلغت من القوة الا نادرا وقبل هذه الواقعة كانت جاءت دولة اسبانيا الى
الجزائر وانزلت عساكرها الى البر فخرجت اليها عساكر الجزائر واجتمعت الاهالي
على جيوشها فانكسرت وقطع دابرها وغنم المسلمون جميع ذخائرهم التي اخرجوها
الى البر ورجعت مراكبهم منكسرة الشوكة مخذولة ثم في سنة ١٢٤٥ وقع الخلاف
بين والي الجزائر حسين باشا وبين قونصل دولة افرانسا بسبب يهودي كان
داخلا تحت حمايتها فتكلم القونصل مع الوالي في شانه بكلام اوجب الغضب منه ان
ضربه بمروحة كانت في يده بمجلس حكومته فامتلأت صدور دولته غضبا من تلك
الاهانة وراسلت السلطان محمود خان بذلك الفعل لما له من السيادة على حكومة
الجزائر فبعث مكتوبا لذلك الباشا يقبح فيه فعله الشنيع وصنعه الفظيع
ويأمره بان يستجلب ذلك القونصل ويفعل معه من الاحسان ما يجبر به كسر قلوب
دولته بسبب تلك الاهانة الواقعة على رؤس الاشهاد فلم يمتثل لامره ونبذ
كلامه فغضب عليه غاية الغضب زيادة على غضبه السابق على تلك الحكومة [illegible]
وقال للدولة الفرانسوية ان اولئك الاشرار قوم عصاة مستقلون بانفسهم
فشانكم واياهم وليته لم يقل وسبب غضبه عليهم قبل ذلك هو ان الدول الاوروباوية
اتفقت جميعا على انها تجري القوانين السياسية وتحكم بها واشترطت على السلطان
محمود ان يمشي ذلك في جميع رعيته ويامر جميع الاقاليم التي له عليها السيادة ان
يجروها ويحكموا بها وان يتخذوا الهيئة العسكرية فبعث الى الدولة المصرية والى
الدولة التونسية والى الدولة الجزائرية فامتنعت الدولة الجزائرية الامتناع التام
وانكرته كل الانكار ولاسيما حيث رات ذلك اللباس المحدد للعورة وتلك
الهيئة التي لم تكن مألوفة عند الاسلام حتى ان مأمور السلطان لما دخل الجزائر امر
بدق الموسيقا العسكرية في تلك المراكب التي جاءت معه فبعث اليهم والي
الجزائر وقال لهم اما ان تتركوا ذلك الدق ما دمتم في ايالتي والا امرت بتغريقكم

فلما

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

فلما رجع ذلك المأمور واخبر السلطان بما شاهده منه ومن اهل مجلسه من الانكار
وشدة الامتناع غضب عليهم غاية الغضب ولولا انه كان مشغولا بقتال الينكجرية
وقرب عهده بمحاربة الموسكوف لبعث جيشا لمحاربة حكومة الجزائر وانتقم من ذلك
الوالي وحزبه ثم ان الدولة الفرنساوية لما كبر عليها تلك الاهانة وعظم في عينها
محاربة الجزائر لما كانت عليه من الصولة وقوة القلب والشجاعة ذكرت لمحمد علي
باشا والي الديار المصرية ما فعله والي الجزائر مع قونصل دولتها والتمست منه
ان يكتب مكتوبا له بالمصالحة بينهما وانه يخطئ نفسه بما فعله مع سفيرها وان
يقبل التنظيمات التي بعث السلطان بها اليه فكتب اليه محمد علي باشا بان
ما فعلته من ذلك الفعل تأباه السياسة وكمال العقل فاستدرك الامر
قبل تفاقمه عليك ومن المؤكد به عليك على وجه النصيحة ان تستجلب ذلك
الشخص وتعتذر اليه بكل اعتذار وتجبر خاطره لتنجبر قلوب دولته والا
فلتعلمن نبأ ما فعلته بعد حين فاجابه لشدة فظاظته بما لا يستحسن ذكره
عند ذوي العقول من الكلام الوحشي وذلك ليقضي الله امرا كان مفعولا
فان الحق تعالى اذا اراد امرا سلب ذوي العقول عقولهم ولذا يقول بعضهم

اذا اراد الله امرا بامرئ ... وكان ذا عقل وسمع وبصر
اصم اذنيه واعمى قلبه ... وسل منه عقله سل الشعر
حتى اذا انفذ فيه حكمه ... رد عليه عقله ليعتبر

ولما ايست الدولة الفرنساوية من رجوعه عن طغيانه لقلة عقله وشدة
صلابته وعظم حمقه وسوء تدبيره وقلة معرفته لاقبال بخته جمعت جيشا
يبلغ عدده ثمانين الفا وهو وقتئذ غاية مقدورها بحيث انها لم تترك في جميع
مملكتها الا شيئا يسيرا من عساكرها مما لا بد لها منه للمحافظة وقصدت الجزائر
فاطلقت صواعقها النارية عليها من البحر فقابلتها الجزائرية بمثلها او اعظم
الى ان صار النهار ليلا من كثرة الضرب وتتابع الصواعق من الجهتين
ولما لم تستفد الدولة الفرنساوية من ذلك الضرب شيئا كرت راجعة
الى وراء وتغيبت مدة ايام في البحر ولسوء التدبير والتساهل في الامور
وعظم الغفلة وعدم اتخاذ الحزم لم تبعث الدولة الجزائرية مركبا من مراكبها
ليكشف لها خبر تلك الاساطيل والجيوش وتقف على قصتها كي تتخذ ما يلزمها
من الاحتياطات اللازمة وتجعل حرسا في جميع الجهات وفي جميع المظان
التي يخشى خروج العدو منها بل غفلت كل الغفلة اعتمادا على ما اظهرته لها
من شدة الضرب والشجاعة وقوة القلب وظنت ان تلك الدولة
انكسرت وانها رجعت الى بلادها وسبب ذلك التساهل هو ان الدولة
الجزائرية لم يبق لمراكبها حزم بعد وفاة رئيس مراكبها وزعيمها المقدام امير البحر
الرئيس حميدو الزواوي عليه رحمة الله وسبب موته هو ان المحاربة كانت

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

مقطوعة بين دولة امريكا وحكومة الجزائر فجاء من الدولة المذكورة اربعة عشر مركبا
من القطع الكبيرة التي تمشي بالهواء ونشر الشوارع والقلاع وذلك قبيل اختراع
البوابير وانتشارها بين الدول الاوروبية وقابلت الجزائر وجالت امامها
يمينا وشمالا على البعد منها ترهيبا لاهلها فلما اخبر بها والي الجزائر امر الرئيس
المذكور بالخروج اليها فقال له ان الوقت غير مساعد للخروج ولا للضرب فالزمه
بالخروج فخرج في جملة من المراكب واشتعلت النيران الحربية بين الفريقين
فكانت الدائرة على المذكور فاستشهد وعلى مراكبه فغنمتها امريكا وبعد هذه
النكبة لتلك الدولة وقع ما وقع بين فرنسا وبينها ثم ان الجيوش الفرنسوية
لما توسطت البحر اجتمع رئيسها مع كبرائه وفكروا في امرهم عند قصدهم معاودة
ضرب الجزائر والانتقام من واليها وقالوا لا يكون لنا تدبير مطيب للغرض ونهاية
في المطلوب من كوننا نستغفلهم ثم ننزل عساكرنا الى البر ونجعل لها استحكامات
ثم نحاربهم فيه وتكون مراكبنا بازائنا اذ محاربتنا لهم من جهة البحر لا نستفيد
منها سوى الحرمان ومزيد الخسران لما للبلد من التحصن وقوة التمكن وانما
ياتونها من بعض الجهات البرية فرجعوا ليلا وقصدوا محلا مهجورا يسمى
بسيدي فرج بينه وبين الجزائر اربع ساعات من الجهة الغربية وانزلوا
عساكرهم فيه واتخذوا لها ما يلزمها من الاستحكامات فما اصبح النهار الا وكان
ذلك المحل مملوءا بالعساكر الفرنسوية فانهم انزلوا ستين الفا وابقوا في المراكب
منها ما ابقوا فخرجت اليهم العساكر الجزائرية وكانت قليلة جدا اذ كان جميع
ما عندهم من العساكر في ذلك الاقليم بجمعه ثمانية عشر الفا من الاتراك
واولادهم وكانت متفرقة ذلك العدد على جميع مدن الاقليم وتحاربهم مع عسكرها
فجمعت ما تيسر عليها جمعه وخرجت فالتقى الجمعان واقتتلوا اقتتالا شديدا ثم
انهزمت الجيوش الجزائرية وتقدمت الفرنسوية بعض التقدم وزاد الاتراك خذلانا
بغض اصحاب الاقليم لهم بما ابدوه من الظلم الفاحش للرعية واوساء الاقليم كافة منه
وبسبب ذلك نفرت منهم القلوب جميعا مع ما كان يرسله رئيس الجيوش الفرنساوية
من المخادعات وتارة يلقيه في الطرقات اثناء المحاربة ليصل اليهم من انه انما
اتى بامر من قبل السلطان محمود لياخذ حسين باشا اليه فغرهم كل الغرور بهذه
المخادعة وثبطهم بها وفرق كلمتهم بسببها فلم يجتهدوا في المحاربة كل الاجتهاد وصار
بعضهم يتقدم للمحاربة مجتهدا ناويا للجهاد والدفع عن الوطن والبلاد وبعضهم
يقول لا مقتضى لهذه المحاربة حيث ان باشا ذاهب وآخر قادم ثم وقع
الحرب بين الفريقين ثانيا واشتد غاية الاشتداد وجاءتهم جموع قبائل البربر
وطلبت من الوالي اعانتهم بالاسلحة والبارود فلم يرض ان يعينهم وقال لاحمد
باي والي المدية لما طلب منه ذلك اليهم قل لهم ليضربوهم بالحجارة ويهجمون
عليهم بالعصي فاني لا اقوي هؤلاء البرابرة بالاسلحة والبارود اذ ذلك خلاف
الحزم

الاتراك صح

ثم ويرد اليهم واليهم السابق صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

الحزم ثم اقتتلوا بعد ذلك فانهزمت الجيوش التركية انهزاما فشلت به كل الفشل
وتقدمت الجيوش الفرنسوية من البلد فعند ذلك تيقن والي الجزائر وحزبه باضمحلال امرهم
واصبحوا آيسين من النجاح وتقطعت بهم الاسباب فما وسع الوالي الا ان بعث مفتي
الجزائر في جملة من اعيانها الى رئيس الاساطيل البحرية ليؤمنه ويؤمن الاهالي من
السبي والنهب فذهبوا اليه وكلموه في ذلك فاجابهم بان الامر كان قبل نزول العساكر
الى البر مفوضا الي واما الآن فهو بيد رئيس الجيوش البرية فرجعوا من البحر وذهبوا
اليه وطلبوا منه الامن والامان للوالي المذكور وللاهالي وطلبوا منه ان يتعهد
اليهم بان الدولة الفرنسوية تقرهم على عوائدهم الاسلامية وتبقي لهم شعائر دينهم
وان لا تتعرض لهم في امر ديانتهم بشيء فاجابهم بالقبول الى جميع ما طلبوه منه وكتب
لهم صكا وختمه على التعهد بما اشترطوه فرجعوا الى الوالي واخبروه بما وقع من
اشتراط الاطمئنان العمومي فحينئذ فتحت الابواب للعساكر الفرنسوية فدخلت وكان
ذلك اليوم اخس الايام على ذلك الوالي وحزبه واستلمت الجيوش الفرنسوية
القلاع والحصون واستولت على البلد وما بها من الذخائر والنقود التي كانت
تجبى اليها من مدة ثلاثمائة وستة وثلاثين سنة وكان من الغرائب ان الدولة
التركية لم تثبت في النزال الا مدة عشرين يوما وكان المظنون بل من الامور المحققة
ان الجزائر لا تؤخذ منهم الا بعد دوام الحرب شهورا متعددة لما هو مشهور لدى
العموم والخصوص من شجاعتهم وقوة قلوبهم التي اكتسبوها من خاصية ذلك
الاقليم وهذا هو الذي اوهم ذلك الوالي واعماه حتى فعل ما فعل ولم يسمع كلام السلطان
محمود ولا نصيحة محمد علي باشا واظهر ما اظهر من المغالطة وشدة الغلظة واوهمت
غلظته الدولة الفرنسوية وظنته انه على شيء مع ما كان يسمع عن تلك الحكومة
من الشجاعة وقوة الحزم وبسبب ذلك تأنت كل التأني وصبرت كل الصبر
ولم تبادره بالحرب خشية ان تعجز عن مطلوبها ولا يتم لها مرغوبها حتى رفعت امرها
الى السلطان محمود مع علمها بان تلك الحكومة مستقلة بنفسها بلا شك ولا ريب
وطغيان اتراك الجزائر وظلمهم رعيتهم هو الذي اوجب خذلانهم وخسرانهم
واضمحلال امرهم[3] وكانت نفوسهم تحدثهم بان لا احد من الدول يقدر عليهم وان
الشجاعة التي كانت تظهر منهم انما هي من نفوسهم ولم يعلموا ان تلك الشجاعة انما
جاءتهم من اهل الاقليم والتفافهم اليه لما كانوا عليه اولا من العدل واتباع الشريعة
المطهرة واظهار السياسة التامة فلما رفضوا ذلك رفضتهم قلوب الاهالي فلم
يبد من شجاعتهم شيء لا كلي ولا جزئي ولا انتصروا يوما واحدا في محاربتهم في البر
عند خروج الجيوش الفرنسوية اليهم ومحاربتهم لهم فيه واخذت منهم الجزائر في برهة
يسيرة مع شدة شكيمتهم وقوة ثباتهم وادعائهم ان لا احد من جميع الدول يقدر عليهم
ثم ان الدولة الفرنسوية لما استولت على الجزائر بقيت ستة اشهر بها ثم وجهت بعض

[3] وقد قيل
عليك بالعدل ان وليت مملكة
واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع عدل الكفر ولا
يبقى مع الجور في بدو ولا حضر
صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

المراكب الى وهران وبعضها الى بونة فملكتهما ولما ارست المراكب على وهران شرعت الاهالى
فى نهب الاشياء التى تخص الدولة التركية ووالى وهران يشاهد ذلك ويراه وهم
يقتسمون الدواب والذخائر ولا يقدر هو ولا احد من حزبه يتكلم فى ذلك وقد انزل
الحق تعالى تلك الاتراك منزلة لم يكونوا يعهدونها ولا كانت تخطر ببال احد من
الناس اذ كان لهم من الهيبة والعظمة والاجلال ما لا يعبر عنه لسان والموجب لذلك
كثرة الظلم الذى تردوا به حتى صار شعارا لهم ولذلك حل بهم الويل والنكال فسبحان
من ابى العظمة والكبرياء لغير وجهه الكريم ثم ان الدولة الفرنسوية لما استولت على غالب
اساكل اقليم الجزائر كوهران ومستغانم وبونة وبجاية وغيرها قنعت بها ولم يخطر
لها خاطر فى تملك بقية المدن البرية اصلا لعظم جهلها بالاقليم واهله حتى انها رغبت
حاكم تونس فى انها تسلم اليه وهران مع كونها اعظم اساكل ذلك الاقليم بعد
اسكلة الجزائر لتكون الدولة التونسية كالوقاية لها من شرور اهالى ذلك الاقليم
لكون الاسلام يجمعهم حيث انها فى ذلك الوقت لم تكن لها نية فى تملكه وانما حدثت
لها نية التملك بعد ذلك فبعثت الدولة التونسية خير الدين باشا الى وهران
فلما وصلها بعث لبعض الرؤساء من وجوهها ولكبراء الدوائر وتكلم معهم فى ذلك
فابوا ولا سيما حين رأوه متهيئا بالهيئة الافرنجية فى اللباس والمأكل وكانوا
يكرهون تلك الهيئة وينكرونها كل الانكار وبسببها اعرضوا عنه الاعراض الكلى
وصار عندهم كالمسخرة وظنوا ان مجيئه خديعة لهم من الفرنسوية وبقى مدة ينتظرهم
فلما لم ير منهم ادنى توجه ولا اقبال رجع من حيث جاء ثم ان المدن البرية بقيت فوضى
فى جميع ذلك الاقليم بعد استقرار الدولة الفرنسوية فى اساكل الاقليم واشتعلت
النيران الحربية فيه من جميع الجهات بالقتل والنهب والضرب والسلب وانقطاع
السبل باخذ الاموال وقتل الرجال ودام الحال على هذا المنوال اربع سنوات بحيث
لا آمر يأمر بمعروف ولا ناهى ينهى عن منكر ولو وجد لا يسمع لقوله ولا يلتفت لنهيه
وشنت الاعراب الغارات على بعضهم بعضا وحصروا المدن التى بالاقليم من جميع
الجهات وكذلك برابر الاقليم اكثروا من التعدى على من يجاورها فكثر الهرج والمرج
واصبحت الناس فى ضنك وحرج واشتد الحصار وعظم الضيق والشدة والبوار
حتى بلغت القلوب الحناجر فلما راى ذلك ذووا الرأى السديد والعقل الكامل الحميد
اجمعوا على ان يدبروا امرا يصلح به شانهم وتجتمع به كلمتهم ويلتئم شملهم ثم اتفقوا
على ان يسلموا الاقليم لسلطان مراكش السلطان عبد الرحمن بن هشام فذهب جمع منهم
اليه وطلبوا منه ذلك فاجابهم لما طلبوه واعطاهم جيشا فدخل مدينة تلمسان ومعسكر
وغيرهما من بقية المدن فامروا ونهوا فى الاقليم مدة شهور ثم صدر الامر اليهم من
ملكهم ان ارجعوا فرجعوا بعد ان لبثوا مطمئنين مدة سبعة اشهر او ما يقرب
منها ثم خرجوا من الاقليم بلا سبب ظاهر وعند خروجهم اخذوا جميع ما وجدوه من الاشياء

التى

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

التي كانت تخص الدولة التركية من الخيول وغيرها مما علموه ويخف عليهم حمله ولم يتركوا الا
المدافع التي كانت بالاسوار فانهم لم يتعرضوا اليها لثقلها ولئلا يظهر لاهل الاقليم
تخليهم عنه فيحصل عليهم تشويش وربما تقع فتنة بسبب ذلك والذي يظهر ان
خروجهم كان بواسطة تلك الدولة الفرنسوية مع ملكهم باننا بصدد الاستيلاء
على جميع ذلك الاقليم وها نحن قد استولينا على غالب اساكله وكيف بك تبعث
جيشك اليه وبذلك اصدر امره برجوع خيوله التي كانت في الاقليم فرجعت ولا سبب
غير هذا يظهر والله اعلم وصفة رجوع ذلك الجيش هو ان رئيسه امر بحضور جميع
ما في الاقليم من الخيول واشاع انهم غازون على الاعراب بمحل كذا ثم لما وصلوا الى ذلك
المحل اظهروا انهم غازون على اعراب أخر بمحل آخر وهكذا الى ان خرجوا من الاقليم
جميعه بلا ادنى مكدر ودخلوا في اقليمهم ولولا احتيالهم على الخروج بهذه الكيفية
لحصل لهم غاية التكدر لو استشعر بخروجهم اهل الاقليم وتخليهم عنه ثم لما رأى اصحاب
الاقليم ذلك الفعل فكروا في امرهم لعلهم ان يعثروا على رجل منهم يصطلح به شانهم
وتجتمع به كلمتهم من اهل الاقليم فلم يجدوا بيتا مشهورة لديهم اهله مسموعة الكلمة
لدى الخاص والعام في جميع ذلك الاقليم جامعة للغنى والعلم وتمام الفضل وكمال
الفروسية من قديم الزمان الا بيت السيد عبد القادر بن المختار الحسني ولا شخصا
معظما عند اهل الحضر والبوادي يتفق جميع أصحاب الاقليم على كماله وفضله وهو
اهل للرياسة وشروط الامامة متوفرة فيه وله اعوان وانصار على نصر المظلوم
وكف الظالم عن ظلمه سوى السيد محيي الدين بن السيد مصطفى من اولاد السيد
المذكور وخلاصة ذريته فجاؤه وطلبوا منه ان يتولى امرهم ويبايعوه على السمع
والطاعة وعلى ان يقيم فيهم الحدود الشرعية ويكف الاشرار عن شرهم وان يزجر
المتغلبين ويردعهم عن عتوهم وغيهم فامتنع من ذلك كل الامتناع فالحوا
عليه المرة بعد المرة وكلما طلبوه يتعلل باشياء ككبر السن وغيره لما يعلمه من
الامارة شانها عظيم وخطرها جسيم وتحملها يسلب الراحة عن القلب ويجلب
له المصائب والهموم ويوجب تشتيت البال والنكد والغموم وهو في غنى عن
رياسة التولية والشغل بها لوافر غناه وسماع كلمته في اقليمه وعظمته في قلوب
اهله مع ما هو بصدده من التفاته لمولاه ونظره في عقباه وكان سنه وقتئذ
يقرب من الستين سنة ولذلك لم يرض التولية لنفسه بل ولا رضي بها لولد من
اولاده وكلما سألوه ذلك له او لولد من اولاده ينكر ذلك عليهم ويأباه وقد تكرر
الطلب منهم له مدة ثلاث سنين فلم يجب احدا منهم فلما كثر الهرج والمرج
وازداد الضيق على المساكين والضعفا وعظم الحرج وتكرر الالحاح عليه
المرة بعد المرة وصار امر الاقليم الى التلاشي والاضمحلال وانقلب الى اسوأ حال
اذ قد انسدت الطرقات وتوالت الحسرات ولا معين للضعيف ولا ناصر الا الحق
جل جلاله اجابهم لمطلوبهم ووعدهم بانه سيفعل اذ راى الامر قد تعين عليه فصمم

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

على الاذن في الامارة والتولية لولده المعظم الكامل السيد الامير عبد القادر لما رأى فيه من
النجدة وتمام الشجاعة والفروسية وقوة القلب والتأني في الامور والتؤدة في المصالح
والثبات في الخطوب العظام وكمال العقل وزيادة المروءة والفضل وقد كان جربه
في الغزوات التي كان يحضر معه فيها ولاسيما في الغزوة التي مات فيها السيد احمد المجاهد
ابن السيد محمد السعيد اخو الامير فقد ابدى الامير فيها من الشجاعة والثبات وقوة
القلب ما شاع وذاع لدى الكمل والرعاع وذلك ان السيد محيي الدين والد الامير
جمع جموعا من الاهالي وذهب بها غازيا وهران ومعه اولاده الثلاثة السيد
محمد السعيد والسيد عبد القادر صاحب الترجمة والسيد المصطفى وابن ابنه الشهيد
المذكور في اثناء الطريق مرض السيد محيي الدين ورجع فذهب اولاده المذكورون
بذلك الجمع وغارت بعض الخيول على من خرج من البلد فاصابت خيلا وبغالا
وبقرا وقتلت من صادفته ثم قربت تلك الجموع من البلد فاغلقت ابوابها
ووقع الحرب مناوشة بينهم على الاسوار واطلقت عليهم بعض المدافع من البلد
فتزحزحوا عنها يسيرا ثم اصابت رصاصة الشهيد المذكور فوقع على الارض
من فرسه فرآه والده فتقدم نحوه ووقف على راسه فنطق بالشهادة ثم فارق
الدنيا وبقي والده واقفا عنده متحيرا لا يدري ما يفعل حيث لا قدرة له على حمله
لنحافة جسمه ثم لحقه الامير ونزل من فرسه وحمله مع جلالة الخطب وشدته
ثم لحقهما جملة من فرسان الحشم ووقفوا في وجه العدو حتى حملوه على بغل وقد
تعجب المحاصرون من اقتحام الامير ونزوله عن ظهر فرسه مع شدة الامر ولم يتركه
للاعداء تمثل به وكانت المدافع تطلق عليهم نيرانها وخيول العدو وعساكرهم
ومدافعهم متوجهة اليهم من البلد ثم وقعت المحاربة فكرت خيول المجاهدين راجعة
الى وراء فلحقتهم خيول من العدو فقتل المجاهدون جميع الخيول التي لحقتهم ولم
تدم محاصرتهم للبلد الا مدة قليلة لعدم وجود السيد محيي الدين معهم ولما رأى
اصحاب ذلك الغزو ما رأوه فيه من الشجاعة والثبات حيث انه لا يمكن
ان ينزل واحد عن ظهر فرسه في مثل ذلك الموطن الا القليل عظم في قلوبهم
وطلبوه من والده بالخصوص وان ياذن له في الامارة والتقدم فكان يطلبونهم
الا انه لم ينشرح لذلك كل الانشراح لصعوبة الامر وجلالة الخطب ثم انه
لما غزا وهران آخر غزوة وكان اصيب فيها من الخيول سبعون فرسا لجموعه
اذ كان قبل تولية ولده الامير المترجم يجيش الجيوش ويجمع الجموع ويغزو بها
وهران ويحاصرها الايام والليالي ذوات العدد ثم يرجع الى محله بالقيطنة
خارج مدينة معسكر حضر لديه جمع من رؤساء الاقليم وكبرائه ممن لهم فيه الحل
والربط وقالوا له قد استحسنا ان تبعث معنا السيد المذكور لنذهب به الى
مدينة معسكر ونجمع من كل بيت منها ريالا للمجاهدين الذين ماتت خيولهم
ليشتروا

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

ليشتروا بدالها فاجابهم الى ذلك ولم يخطر بباله انهم يبايعون ولده في ذلك النهار
وانما كان مراده والله اعلم ان يبعث رؤساء الاقليم فتجتمع كلمتها كعادتها في المهمات
ثم تقدم اليهم ولده فيبايعونه غيران اولئك الرؤساء لما فهموا من سعادته الركون
لما طلبوه منه اخذوا الامير وتوجهوا به الى معسكر في موكب عظيم فلما قربوا منها
نزلوا في محل خارجها واستحسنوا ان يعقدوا له البيعة في ذلك المحل اذكان
المحفل مشتملا على اغلب علماء الاقليم وذوي الهيئات والكمال منهم واهل الحل
والربط من مشايخ العرب ووجوه مدينة معسكر وبايعوه بيعة خاصة ففعلوا
وبايعه جميع من كان بذلك المحفل خارج البلد وكتبوا له البيعة وقرأ كل واحد منهم
ماكتبه على ذلك الجمع وكان ذلك باوائل رجب سنة (١٢٤٨) وبعثوا للبلد
فاحضر والطبول ثم اجتمعت عليهم جموع من تلك الجهات وادخل البلد والطبول
تدق امامه وهم على غاية من السرور فلما دخل المدينة اطلقت المدافع من اسوارها
اعلانا بتوليته وفرحا به وبما وقع من اجتماع كلمة الموحدين ثم بعد ان ثبتت البيعة
لسيادة الامير بما فعله العلماء المتقدم ذكرهم كتب والده الجليل السيد محيي الدين لرؤساء
الاقليم جميعا وصناديده وشيوخه بالحضور لمبايعة الامير ممن لم يحضر ما تقدم
فاجابوه كلهم الا السيد محمد بن سيدي عريبي فانه امتنع اولا وكتب مكتوبا له يعطي
فحواه انه لم ينشرح لما اتفق عليه اهل الاقليم ثم انه تروى اياما ثم وفد في جملة من
وفد من رؤساء الجهات وذلك شهر رمضان وبايعوه على الجهاد والسمع والطاعة
وعلى ان يقيم فيهم الحدود الشرعية ويسير فيهم سيرة عمرية وقد حضر هذا
المشهد الثاني جم غفير وجمع كثير وبعد بيعتهم اطلقت المدافع من اسوار المدينة
ومن الطابيات وكتبت له البيعة العامة الكبرى داخل البلد وبها تمت له
الامارة على جميع الاقليم وقد ذكر السيد احمد حرسه المولى جانبه في كتابه نصوص المبايعات
التي كتبها اجلاء فضلاء ذلك القطر طويت نقلها هنا روما للاختصار فاصبح الامير
وقد تمت له البيعة بذلك الجمع العظيم والاتفاق العميم وثبتت له الامارة والسلطنة
على ذلك الاقليم بجميعه بلا معارض وخضعت له جميع المدن البرية في جميع
ذلك الاقليم بلا ادنى كلفة سوى مدينة تلمسان فانه عارضه من كان فيها من
الاتراك واولادهم ولم يخضعوا له فحاربهم واستعان عليهم بمن فيها من العرب
الحضريين ففتحها وخضع له ما فيها من الاتراك وبخضوع تلمسان له وتملكه
لها تمت له الامارة وثبتت له المملكة والسلطنة على الاقليم اذ هي اشهر مدنه
وقد كانت دارا للملك من قديم الزمان وكانت لها صولة ودولة ايام ملوكها بني
زيان وقد خطب باسم الامير على جميع منابر ذلك الاقليم ومدنه البرية وهي
مليانة والمدية والبلايدة والقلعة ومعسكر ومازونة وتاهرت وبسكرة
والاغواط والزاب وندرومة وغيرها ولم يبق من مدن ذلك الاقليم الاوسط
سوى السواحل والمراسي التي دخلتها الفرنسوية قبل توليته وهي القالة وبونة

أخوه

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

وجلجل وبجاية وشرشار ومستغانم ووهران والجزائر وسوى قسنطينة
فان الحاج احمد باي كان استقل فيها بمن كان فيها من الاتراك وبقيت تحته
مع جهاتها الشرقية كما كانت قبل استيلاء الفرنسوية على الجزائر فانه كان
واليا عليها وعلى اياالتها الا ان الامر لم يتم له الامدة يسيرة واخذتها منه الدولة
المذكورة ثم استولى الامير على بقية ايالتها الغربية ثم ان الامير بعد استقرار
الامارة اليه جعل حدودا بينه وبين الفرنسوية من جهة الاساكل والمراسي
التي كانت تحت مملكتها وجعلت قونصل عنده من قبلها اسكنته مدينة معسكر
اسمه دوماص بدلا عن قونصلها الاول الذي قتل نفسه وكتب بخطه لا تتهموا
احدا بقتلي فانا الذي فعلت بنفسي ما فعلت وجعل الامير وكيلا عندهم اسكنه
مدينة وهران وكان بواسطته يشتري له جميع ما يلزمه من الاسلحة ثم شرع الامير
في كتب العساكر النظامية وجلب لها من البلاد الاوروبية المعلمين التعليمات
الحربية والتنظيمات العسكرية اقتداء بمحمد علي باشا والي الديار المصرية فانه
لما جاء الامير الى الحج مع والده رأى الباشا المذكور مجدا في كتب العساكر وترتيبها
على النسق المعروف فاقتدى به فيما فعل فلم يلبث هو بعد توليته الا سنة
واحدة واشهرا وشرع في كتبها متبعا نسق المذكور وطريقته ولم يكن الا مدة
يسيرة حتى اصبحت دولته كانها دولة قديمة ثابتة القوائم مؤسسة الاركان
والدعائم وفي سنة (١٢٥٣) اتخذ فابركيا لعمل السلاح والبواريد وجلب
آلتها وصناعها ومعلموها من الدولة الفرنسوية ايام مهادنته معها بدراهم
بليغة على مدة سنة كاملة وجعل تحت اولئك المعلمين صناعا وفعلة من
اهل الاقليم وهددهم بالقتل ان لم يتقنوا الصنعة قبل تمام السنة ثم ما مضت
الامدة يسيرة حتى اتقنوا الصنعة ومهروا فيها على احسن ما ينبغي لما اسمعوه
منه من التهديد بالقتل وشديد الاهانة ثم رد معلميها الافرنجيين الى بلادهم
قبل تمام السنة حيث لا لزوم في بقائهم وبعد ذلك شرع في اتخاذ فابريكا
اخرى لعمل المدافع الكبيرة الا انها لم تتم فاصبح الاقليم بعد توليته مجتمع الكلمة
مبتهجا وارتاح الاهالي مما كانوا فيه من العذاب الاليم بسبب القتل والنهب
والهرج والمرج وتشويش الافكار والتعدي على الضعفاء والمساكين وامنت
السبل وانكسرت شوكة المتغلبين من جبابرة الاقليم وخمدت نار الحرب التي
كانت بين الاهالي واستراح الناس ايام دولته راحة عظيمة وكانت ايامه
ايام خصب ورخاء وسعة لسيرته سيرة المتقدمين من الملوك العدل
فانه في ايام دولته لم ياخذ من الرعية الا الزكاة المشروعة وبذلك عمت الراحة الاهالي
جميعا وبعد توطيد البلاد اليه واجتماع قلوب الاهالي جميعا عليه كاتب ملك
مراكش السلطان عبد الرحمن وكانت بينهما مواصلات عظيمة ومكاتبات تقتضي
كمال المحبة والمودة وتمام المواصلة وقد بعث الامير اليه اول مرة اخاه العلامة

السيد

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

السيد محمد السعيد ومعه شيخه العلامة السيد مصطفى بن عبد الحليم المستغانمي
في جملة من اكابر الاقليم مستصحبا معه بعض التحف الافرنجية لتتميم ربط المواصلة
بينها والمودة وارسل اليه ثانيا عمه العلامة الافخم السيد علي بن ابي طالب في وفد
من روساء الاقليم ووجوهه فاكرمت الدولة المراكشية نزلهم واحسنت اليهم كل
الاحسان ثم بعد ذلك بمدة ارسل اليه شيخ الجماعة ومقدمها في وقته العلامة المتفنن
السيد ابن عبد الله الملقب بسقاط قاضي مدينة معسكر ومعه جمع من الوجوه
وبسبب تلك المواصلات كان يشترى له وكلاؤه الذين هم بتلك الدولة ما يلزم
من الكسوة والآلات والسروج والبارود وجميع ما تحتاجه العسكرية من الاشياء
واتصلت تلك المودة بينهما ثم انقطعت بما سنطلع عليه بعد وقد كان الامير
ايام ولايته يحتفل احتفالا عظيما للمولد النبوي ويخرج جميع عسكره من البلد
الى ارض فيحاء متسعة ويجعلون بها شبه محاربة فيقف عسكره في ذلك المتسع
ويجعل شبه قلعة مربعة الاركان من العسكر ويكون في وسط تلك القلعة ما تحتاجه
من الذخائر العسكرية ويجعل في كل ركن من اركان تلك القلعة مدفعا او مدفعين
ثم يحيط بتلك القلعة خيول من خيالته النظامية او من الاهالي ثم تخرج من القلعة
شرذمة لتدفع تلك الخيول وتزيحها عن محالها وتبعد بمقدار عشرة دقائق عن القلعة
وتطلق البارود على تلك الجموع المتراكمة المقابلة لها ثم تهجم عليها تلك الخيول هجمة
واحدة وتطلق عليها النيران البارودية فاذا تكاثرت عليها رجعت تلك الشرذمة
منهزمة ومتولية الى وراء وتطلق البارود على الخيول الى ان تدخل لتلك القلعة فتلتئم
معها وتصير كانها لم تخرج منها ولا انفصلت عنها ثم تطلق تلك القلعة النيران
المتتابعة على الخيول وتضربها بمدفع او مدفعين من ذلك الركن فترجع الخيول
عنها ثم تخرج طائفة اخرى من جهة غير تلك الجهة وتفعل مثل الاولى ثم تهجم عليها
الخيول التي بمقابلتها بقوتها وتفعل كما تقدم ثم ترجع متولية القهقرى طالبة
للتحصن بتلك القلعة مع عدم فترة الضرب عنها فاذا وصلت الى القلعة التحمت
معها وصارت بحيث يراها الرائي كانها لم تخرج منها اصلا ولم تبارحها ثم تشتعل
النيران المتتابعة فترجع الخيول وتطلق عليها الصواعق المدفعية من ذلك الركن
وهكذا تفعل من جهاتها الاربع ويكون ذلك الحرب بمقدار ساعتين او ما يقرب
منها فيرى من يشاهد ذلك افعالا تسره ويبتهج منها خاطره وكذلك كان يفعل
في جميع الاعياد بعد الصلاة وكانت مدة تولية الامير سبعة عشر عاما منها اثنتا عشرة
سنة كانت على غاية ما يكون من الراحة والسرور والبسط وان حصل فيها بعض
المحاربة فليست بمكدرة كل التكدير ولا مشوشة للاهالي اذ كانت تشتعل فيها نار
الحرب ثم تنطفئ سريعا لعدم توجه الفرنسوية فيها لملك بقية ذلك الاقليم واما بقية
تلك الاعوام فكانت على غاية ما يكون من الشدة والعذاب الاليم اذ الكروب
كانت فيها متوالية والحروب متتابعة فقد وقعت فيها بين الامير وبينهم حروب

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

متصلة متعددة لها ايام وليال مشهورة ولنذكر اول حرب منها لشهرته عند الخاص والعام
وان كانت هذه المحاربة وقعت قبل ان تعترف الدولة الفرنسوية للامير بالامارة على
الاقليم وتسطر امره في دفاترها وان كانت جعلت وكيلا عنده من قبلها فانما ذلك لاجل
ان تطلع بسببه على اشياء من امر الاقليم وتهتدي به الى بعض المصالح تظهر لها نتيجتها
فيما بعد لا لكونه معدودا عندها وقتئذ من الملوك ذوي المقاطعات اذ ما ثبتت له
الامارة عندها ولا اعترفت له بها الا بعد هذه الحرب بمدة كما ستطلع عليه وبعثه
اليها الحاج المولود ابن عراش سفيرا الى باريز عاصمة ملكهم وهذه الحرب هي التي وقعت
بتربوج مولاي اسمعيل وهي اول حرب وقعت بينهما فبينما الامير على غاية ما يكون من
الاطمئنان والراحة واذا بمكتوب ورد عليه من بعض مسلمي الجزائر يتضمن ان الجنرال
تيريزي متوجه لقتالك فكن على اهبة وحذر ولا سبب اذ ذاك يقتضي الحرب
او يفضي اليه غير ان المكتوب تاخر وصوله اليه ولذلك لم يتاهب حسبما ينبغي وكان
باين مصدق ومكذب لعدم السبب فتاهب بعض التاهب وجمع امره بعض الجمع
وكان دوماص قونصل دولة افرانسا عنده بمعسكر ووكيله هو بوهران ولم يبد باله
شيئا مما يقتضي قطع المواصلة او يوجب تكديرا او حربا ثم ان سعادته لم يلبث الا
مدة يسيرة بعد ذلك واذا بخبر ورد عليه من رئيس العسس المحافظين على الحدود
بان العساكر الفرنسوية انفصلت عن مدينة وهران متوجهة للقتال حسبما يظهر من
سيرها فكن على اهبة فجمع الامير عسكره الذي هو بمدينة معسكر وبعث للعرب التي
كانت حواليها من الحشم وغيرهم بالحضور والتاهب للجهاد والذب عن الوطن والبلاد
والمحاماة عن الحريم والاولاد وبعث وقتئذ ساعيا لعسكره الذي هو بمدينة تلمسان
تحت قيادة خليفته السيد محمد البوحميدي بان يبعث به سريعا من غير تراخ ولا توان
ويحملونه على الابل والبغال ويأتون بهم كانهم طائرون وخرج بمن معه من الجند
وبما تجمع من الاهالي ومن العرب متوجها نحو مدينة وهران فالتقى الجمعان على غير
ميعاد وشبت النيران الحربية وحمي الوطيس واختلط الجمعان وبطل ضرب
البارود ولم يبق الا بالسيوف والنصال التي تجعل على رأس البواريد تشبه النصال
فمات جميع من خرج به الامير من عسكره المنظم المشاة واطلقت الجيوش الفرنسوية
الصواعق النيرانية من مدافعها على الخيول التي بقيت مع الامير وعلى جموع الاعراب
فتشتت وانهزمت لتتابع ضرب المدافع عليها ولم يبق من الجموع الا القليل وقد
خلت الطريق ولم يبق معارض وتقدمت الجيوش الفرنسوية ومشت مقدار ساعتين
او ما يقرب منها ثم نزلت وخيمت وتقدمها وسيرها انما كان لاظهار القوة والا فانها
تكبدت خسائر جمة ولما خيمت نزل الامير بمن بقي معه من الخيول بالقرب منها في شرذمة
قليلة جدا بحيث لا تقدر على ادنى معارضة ولا تملك دفاعا ولا مقاومة يسيرة
ثم في الساعة الثالثة من تلك الليلة وردت على الامير خيول كثيرة من قبيلة فليتة فحصل
لجماعة الامير بعض الاطمئنان بها وما عسى تفيد الخيول ولو بلغت ما بلغت في الكثرة

مع

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

مع العساكر النظامية المقواة بالمدافع ثم قبيل الصبح وصلت العساكر من تلمسان التي
كان بعث اليها بالحضور فتعضدت قوته بها واشتد ساعده بوصولها وبوقتها القى الله
تعالى الرعب في قلوب الجيوش الفرنسوية فكرت راجعة الى وراء على طريقها التي جاءت منه
مع انها لو جدت بالامس كل الجد لكانت وصلت مدينة معسكر ودخلتها بلا معارض
وتحصنت فيها اذ لا مدافع لها قبل مجيئ ذلك العسكر والاهالي لا تقدر على دفاع العسكر
النظامي وترجيعه ثم لما راى الناس رجوعها وتوليها القهقرى مع حضور العساكر
التلمسانية تقوت قلوب الاهالي ورجع من كان فر بالامس الا القليل ثم انتشبت
النيران الحربية بين الفريقين وقد اجتمعت جموع بليغة من الاهالي واحتاطت بهم
فحمي حينئذ الوطيس واكفهر وجه النهار واطلقت الاعراب النيران بالاشجار الملتفة
بذلك المحل والحشيش امام الجيوش الفرنسوية وعن اليمين والشمال واكثرت
من الصياح واللغط والضجيج مع تتابع الصواعق من مدافع الجهتين فوهنت
العساكر الفرنسوية وانكسرت شوكتها وفشلت كل الفشل وحصل فيها الضعف
والخلل ولاسيما حيث اخذ رئيس الطبجية بعض المدافع وجعلها امامهم على محل
مرتفع ثم ارسل عليهم نيرانها المتتابعة وكان حاذقا ماهرا في كيفية ارسالها عليهم فدخلهم
الفشل الكلي وتركوا جميع ذخائرهم وبعض المدافع ولم يبقوا بايديهم الا ما لا بد منه
وتوجهوا قاصدين البحر طلبا للتحصن به والتخلص من الهلاك اذ لم يبق من جيشهم في ذلك
النهار الهائل الا طائفة تجمعت على من بقي من الرؤساء واتخذت شبه قلعة مرتفعة الاركان
ومشت نحو البحر اذ رأت فيه بعض المراكب من مراكبها كانت تجول فيه وقد كانت ايست
من النجاة فانها رفعت علامة التسليم واشهرتها مرتين ولم تحصل من ذلك على طائل لعدم
فترة البارود من تلك الجموع المتشكلة من عشائر العرب واخلاطها حيث انها لا تفهم
علامة التسليم او انها فهمت وقصدت اعدامهم بالكلية فحينئذ تحققوا بالهلاك
وتيقنوا ان لا نجاة واما عسكر الأمير فظن ان تلك العلامة مجرد خديعة ومكر ثم
ان ما بقي من الجند الفرنسوي لما وصل الى البحر قربت منه تلك المراكب وصادفتهم
على سبيل الاتفاق وجدتهم على اسوأ حال فركبوها ونجوا ولولاها لاستؤصلوا
جميعا وقطع دابرهم وفي ذلك النهار يقول عم الأمير من قصيدة

قلنا لهم ظهر المجنز عشية … اصبنا بها الفا ونصفا من الألف

وهذا القدر هو الذي تركوه ملقى على وجه الارض في مقتلة اليوم الثاني ما عدا من مات
منهم في مقتلة اليوم الأول وواروه ولم يظهر له اثر خشية ان تحرقه الاعراب وذلك
العدد يحكى انه يقرب من التسعمائة ما عدا المجاريح وقد مات في اليوم الثاني عدة من
روساء عسكر الامير وكثير من مشايخ العرب وفي اليوم الأول استشهد جميع عسكر الامير
الذي خرج به من مدينة معسكر ومعهم اثنا عشر ضابطا كبيرا من الذين يشار اليهم
وتأسف على فراقهم التاسف الكلي وقد اسر من الجند الفرنسوي جمع غفير اذ كان
الامير وعد كل من جاء بواحد من عسكرهم حيا او براس ميت فانه ياخذ عشر ريالات
فاقتحمت الأعراب لذلك شدائد المنية وخاضت بحار الموت بهمة قوية طلبا لحصول

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

الموعود به وجآت بعد كثير فوفى الامير لجميعهم بما وعد وانجز مع ضعف خزينته وقلة
ما بيده وكان لهذه الواقعة موقع عظيم في قلوب الافرنج وغيرهم حتى ان الاعراب اتخذتها
تاريخا لاولادها ومن وقتها اعتبرت الدولة الفرنسوية الامير كل الاعتبار وعظم في عينها
وعرفت قوة عزمه وشدة حزمه وتحققت شوكته ونفوذ امره وقد كانت جاته على
غفلة لتنال منه مطلوبها على غرة فرجع سهمها عليها وبعد هذه الواقعة التي ملأ السهل
مرعاها استعظمت افرنسا الامير وعرفت حقه وصارت لا تبادره بالحرب ولا
تنتشب بينهما الا بعد المخابرة ونقض الصلح على ان كثيرا من المرات كان ياتي نقض المهادنة
والصلح من قبله وقد استحقر هذا القدر من الموتى في تلك المعركة المتقدمة من لم يعرف
حق القتلى من الادميين ولم يحضر لمواقع النزال مع ان غاية ما في الحروب الوقتية العظيمة
هذا القدر او ما يقرب منه ثم تنهزم الجهة المغلوبة وكون اليوم الواحد يموت فيه عشرة
آلاف مثلا او ما يقرب منها غير مقبول عند اولي التجربة العارفين بالمواقع في جميع
هذه الحروب الواقعة الآن وان ذكر فانما هو على جهة المبالغة نعم في ايام متعددة يصح
ما ذكر وتصدقه العقول الكاملة وسبب ذلك كون حروبنا الوقتية نارية وهي لا يقتل
فيها اكثر من الف فاقل ثم تنهزم الجهة المكسورة وترتفع الحرب وهذا في الحرب التي
بلغت حدها والا فلا يصل لهذا المقدار الا القليل من الحروب ثم بعد تلك المحاربة
المتقدمة وقع الصلح بين الامير وبين الدولة الفرنسوية وتمت المهادنة سنين ثم انتقضت
وسبب نقضها هو ان الدولة الفرنسوية كانت اخذت قسمطينة من يد الحاج احمد
باي خرجت اليها من بونة وانكسرت اول مرة ثم خرجت اليها من طريقها مرة ثانية بقوة
عظيمة يقال ان عسكرها كان ستين الفا ما بين راكب وماش فملكتها عنوة وسبب
انكسارها في المرة الاولى هو انها لما احاطت الجيوش الفرنسوية بها وصارت تجعل
لانفسها الاستحكامات صار رئيسها يجول بين صفوفها واذا بكورة من مدافع سور
البلد اطلقت على ذلك الرئيس ففرقته شذر مذر ثم انتشبت الحرب بين اهالي
البلد وبينها ولموت ذلك الرئيس وشدة البرد انكسرت الجيوش الفرنسوية وخسرت
خسارة عظيمة وكان بين المحاربة الاولى والثانية ستة اشهر ولم يحضر واليها الحاج
احمد باي لواحدة منهما فانه لخوفه من الاهالي بسبب كثرة ظلمه لهم الظلم التام كان
كلما توجهت الدولة الفرنسوية لاخذها يخرج بمن كان معه من الاتراك الى محل بعيد
منها ثم يراقبها منتظرا ما يصير اليه حالها وانما كان الذي يحث الاهالي على الدفع
على الاهل والاولاد والوطن قائد البلد ابن البجاوي رحمه الله تعالى الى ان اصيب
وخرميا فدخلوها بعد محاصرتهم لها ثمانية ايام وكانوا احاولوا ان يدخلوها من الباب
فما قدروا بعد ان ضربوا الباب بالمدفع وانفتح المصراعان لهم فهجموا مرات متعددة
ورجعوا خائبين واغلق الباب واعيد لما كان عليه فلما ايسوا من دخولها منه لشدة تحصنه
بالطابيات التي كانت فوقه تركوا الباب ونصبوا عدة مدافع تجاه السور من محل بعيد
عن الباب ليلا واضاؤا عليه بشعلة كهربائية ثم تتابعت صواعقهم على ذلك المحل

ففتحوا

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

ففتحوا فيه بابا ثم اقتحمت عساكرهم على ذلك المحل وهجمت بقوتها عليه فدخلت ثم صارت
المقاتلة بينهم وبين الاهالى بالازقة والشوارع مدة من الزمان ثم وقع التسليم
والاعلان بالامان ولما دخلوها فر الكثير من الرجال والنساء ونزلوا من كاف الشكوره
بالحبال خوفا من السبى او اطلاق سبيل الفاحشة فيهم وكان النزول منه صعبا جدا
ومخاطرة عظيمة ولكن شدة الخوف الجاتهم الى ذلك النزول من تلك المهواة وبعد
ان ثبت قدم الفرنسوية فى قسمطينة رام بعض اولاد ملكهم فليب ان يذهب اليها
فخرج من الجزائر متوجها نحوها على طريق البر ومشى فى اراضى الامير ورعيته ولم
يستأذنه فى ذلك فلما سمع به امتلأ غيظا وغضب الغضب الشديد على العسس
الذين كانوا على الطريق حيث انهم لم يشهروا عليه السلاح ثم كتب مكتوبا للفرنسوية
يقبح منهم ذلك الفعل فاجابوه حيث ان الولد صغير السن وقد اختار ذلك وحتم
انه يمشى فى ذلك الوقت ولا سعة فيه للاخبار مع تحققنا ان ذلك الامر لا يشق
عليك حيث لا ضرر فيه لا عليك ولا على الاهالى فالخطب سهل فلم يرض الجواب ونقض
المهادنة التى كانت بينهما وانتشبت الحرب فكانت سببا لاخذهم تلمسان منه اول مرة
ثم احتاط بهم فيها وضيق عليهم غاية الضيق الى ان خرجوا منها صلحا بسبب ما لحقهم
فيها من الضنك والشدة وانقطاع المؤنة عنهم فلم يتيسر لهم البقاء بها ثم انعقد
الصلح بينهما سنين وفى اثناء هذه المدة بعث الامير سفيره الحاج المولود بن عراش
الى باريز عاصمة ملكهم وقاعدة سلطنتهم واجتمع مع الملك فليب وجعل له
ضيافة احضر اليها جملة من رؤساء دولته ووزرائه وقال نحن نريد دوام المواصلة
بيننا وبينكم وتمام الموادة ولكن لا يتم ذلك الا بشرط ان يكون الحد الفاصل
بين رعيتنا ورعيتكم النهر الفلانى الذى هو بالارض الفلانية وذكر بعده شروطا
اخر فقال له اما ما ذكرته من الشروط غير المذكور فاننى اقبلها واصدق عليها الآن
واما الاول فموقوف على تصديق الامير وانى قبلته ان قبله ورضى به وابقوا ذلك
السفير عندهم بباريز ثلاثة اشهر وقد اطلعوه فى تلك المدة على جميع عددهم وعددهم
ترهيبا له واظهارا لقوتهم فانه ما من يوم من الايام الا ويمشى امام المنزل الذى هو فيه
جيش عظيم غير الجيش الذى كان رآه بالامس ومن ذلك الوقت اعترفت الدولة
الفرنسوية للامير بالامارة على اقليم الجزائر ولقبته بها وعدوه من جملة الملوك
ذوى المقاطعات فلما جاء ذلك السفير اخبر الامير بما قال له الملك فقال له انا
لا ارضى بذلك ولا اسمح لهم بشيء من بلادى ولو جزئيا فالحمد لله على عدم تصديقك
على ذلك ولو ادى الى المحاربة مع ان الذى طلبه مقدار فرسخين ونصف لا غير فقال
له نحن لا نقدر على محاربتهم اصلا على ما اطلعت عليه من زيادة العدد والعُدد
التى عندهم وشاهدته من وفور خزائنهم مع ضعفنا وقلة عددنا فنحن لا نقدر
عليهم فقال له ان الوهم استولى عليك وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن
الله ثم قال له بعض الحاضرين لتلك المحاورة وما يدريك ان تلك الجيوش التى كانت

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

تم بمرأى منك تكون الثانية هي الأولى وانما يغيرون هيئتها ولباسها فسكت ثم بعد مجيء
السفير بمدة وقع التقاطع وسببه ما تقدم ولينه سمح لهم بعشرة فراسخ ثم بعد ذلك
عظم البلاء واتصلت الحروب وتوالت الشدائد على ذلك الاقليم ولم تطب الراحة
لاهله مدة خمس سنوات متوالية ولنذكر حرب ثنية مزاية من اراضي المدية وكان
حضرها الامير وخليفته السيد محمد بن علال وخليفته الثاني السيد الحاج محمد
البركاني وكانت ضباط العساكر مجتمعة فيها وبسبب ذلك الاجتماع حصلت
من العساكر همة قوية وشجاعة كلية اذ قد حضرت ذلك النهار بقلوب صخرية
وافئدة حجرية مع ان عددها كان لا يزيد على ستة آلاف ما عدا جموع المتطوعة
من الاهالي وفعلت ما لا يصدر الا من نحو الثلاثين الفا فاكثر والامير كان من
عادته انه لا يجمع في جميع مواقعه كلها عساكره ويحارب بها خوفا عليها من ان يفنيها
الحرب لقلتها بل كان عسكره دائما متفرقا على خلفائه وهم السيد محمد بن علال والسيد
محمد البوحميدي والسيد الحاج محمد البركاني والسيد محمد بن سيدي عقبة وذلك
لان الجيوش الفرنسوية كانت تخرج متفرقة من جهات شتى لتعظم المكايدة
بذلك وليتفاقم الامر على الأمير وبسبب ذلك كان يقابل هو جيشا وكل واحد
من خلفائه المذكورين يقابل جيشا من جيوشها ومع كل واحد منهم قطعة من
العسكر النظامي وجموع من الاهالي بمقدار عشرة الاف او اقل او اكثر وسعادة
الامير لو جمع كل عسكره وحارب بهم لافنتهم الحرب في مقتلة او مقتلتين واضمحل
امره في مدة يسيرة لقلة عدده وعدده اذ جميع عسكره الذي كان مقيدا في الدفاتر
وله معاش اثنا عشر الفا منتظمة الانتظام الموجود بين الدول منها ثمانية
الاف مشاة واربعة الاف خيالة وما كان تقوية سوادها الا الجموع الاهالي
المتطوعة ولم يحصل في جميع حروب الامير ومواقعه مع كثرتها وتعددها ما حصل
في المقتلة الاولى من القتل وفي مقتلة ثنية مزاية واما حرب جامع الغزوات
فان العساكر الفرنسوية كانت فيها قليلة جدا ولذلك استأصلهم الامير جملة
واحدة في مدة يسيرة قتلا واسرا ولم ينج منهم احد والذي اوجب ثبات عسكر
الامير الثبات الكلي في مقتلة ثنية مزاية المتقدمة هو اتخاذهم التحصينات
اللازمة فان الجيوش الفرنسوية جاءت قاصدة دخول المدية فسبقها عساكر
الامير وجعلت امامها بالطريق استحكامات وثيقة ثم انتشبت الحرب بين
الفريقين وهجمت العساكر الفرنسوية المرة بعد المرة على عساكر الامير روما
ان تخرجها من الاستحكامات وفي كل هجوم ترجع الى وراء متولية القهقرى
عن عدد بليغ من قتلى وجرحى حتى صارت الارض مزروعة بجثث الآدميين
وترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية ومن العجب انهم وجدوا في هذه
المقتلة جملة من العساكر المصرية مع الجيوش الفرنسوية وكلها من الجيوش السودانية
ولم يتحقق سبب حضورهم الى الآن ويقال ان محمد علي باشا والي مصر امدهم بتلك
الطائفة

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

الطائفة وهو مما يستبعد والله اعلم ثم لما اشتدت النيران ذلك اليوم ولم تستفد
الجيوش الفرنسوية من هجوماتها شيئا امر ابن الملك فليب بتقديم طائفة من
عسكرهم المسمى بالزواف وكان بعيدا عن معمعة القتال ودفعوا عليه الموسيقا
الكبيرة لتتعاظم عند ذلك نخوتهم مجاؤا وحملوا بجلتهم على عسكر الامير الذي كان
بالاستحكامات بقوة عظيمة فاخرجوهم منها وزحزحوهم عن اماكنهم بعد ان مات
منهم في ذلك الهجوم خلق كثير وتكبدوا بسبب ذلك الهجوم المتوالي خسارات
جمة وجرح ابن الملك فليب في رجله ومات بسبب ذلك الجرح وان اشاعوا
ان الكروسة هي التي مرت على رجله والصحيح انه اصيب بالرصاص وحمل ومات
ثم انفصل النهار عن عدد بليغ من قتيل وجريح وناهيك بمحاربة يموت
فيها ابن الملك وفي اليوم الثالث بالقرب من ذلك المحل انتشبت الحرب
بين الفريقين واشتدت وبقيت الى ان تولى النهار ثم انفصل الجمعان وكانت
الغلبة لعساكر الامير عليهم والحاصل ان حروب الامير معهم كثيرة وكذا غزواته
على الاعراب التي اعانتهم عليه وجدت معهم كل الجد كثيرة ايضا يحتمل جميعها
مجلدا كبيرا وسبب اعانة الاعراب لهم ان الدولة الفرنسوية لما تحققت صلابة
الامير بعدم استعماله السياسة معها والمداهنة شرعت في جلب الاعراب
ببذل الدراهم البليغة لكبرائها حتى استجلبتهم بذلك كل الجلب وبسبب ذلك
بذلوا مجهودهم معها وحيروا الامير وسعوا في تأخر امره ولا سيما في آخر الامر
فان من الامور المحققة ان الدولة الفرنسوية لو لم تستجلب قلوب الاعراب
بالاحسان الذي تقتضيه السياسة واستعجلها الامير بالمحاربة قبل
اشتداد عضده وتقويته بتكثير العساكر ما قدرت عليه اصلا ولكنها لما رات
شدة صلابته التي تقتضيها خاصية الاقليم مع جده كل الجد في كتب الجيوش
والتفاته كل الالتفات للامور العسكرية بهمة قوية تحققت بانها ان تركته
حتى يتقوى عضده ويكتب خمسين الفا من اهل ذلك الاقليم الذين يعد
كل واحد منهم بعشرة من غيرهم كما هو مشاهد من عسكره فلا يتيسر لها اخذ
الاقليم اصلا وقد كانت نية الامير ان يكتب ذلك القدر من اهل الاقليم
كما صرح بذلك بلسانه وبسبب ذلك بادرته بالمحاربة قبل ان يشتد ساعده
بما ذكرنا ونقضت المعاهدة التي كانت بينها وبينه وجيشت جيوشا بليغة
وخرجت بها من مواضع شتى متعللة بعدم رضا الامير بتغيير الحد الذي
كان طلب الملك من سفيره كما قدمناه وحينئذ توالت الحروب على اهل
ذلك الاقليم وتتابعت النكبات ودامت البليات الى ان استولوا على
ذلك الاقليم بجميعه مدينة بعد مدينة وجبلا بعد جبل بعد معاناة شدة
حروب ومقاساة ضنك وكروب الا ان الامر لم يتم لهم الا بعد ان ملكوا
تلمسان فانهم قبل استيلائهم عليها كانوا كلما اخذوا بلدا من البلدان يحاط بهم

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

من جميع الجهات وتبقى جيوشهم محصورة بها على غاية ما يكون من الضيق ولا تصل اليهم
المؤنة الا بشق الانفس واوامر الامير ونواهيه سارية في الاقليم بجميعه مع كون
المدن كلها بايديهم الا مدينة تلمسان وجميع المدن عليهم مغلقة الابواب وان وقع
القتال فانما يقع من طاقات بالاسوار ولا يدخل عليهم احد ولا يتجاوز احد اسوار
المدن التي هم بها ودام هذا الحال معهم مدة واعين جميع الرعايا واهل الاقليم
طامحة الى تلمسان ماذا تصير عاقبة امرها ثم ان خليفة الامير السيد محمد البوحميدي
كان واليا عليها ومشددا على اهلها ومنغصا عليهم وقتهم وكانت تكررت شكاياتهم
عليه للامير فلم يسمع لهم فيه ولم ينفس كربهم بعزله لكونه من خواص احبائه ومن
عادته انه لا يسمع في ولاته عذل احد ويقول لا يمكنني ان اعثر على من يرضيه الجميع
ولا يشتكي منه احد وربما لو عزلت هذا لكان من ياتي بعده ادهى وامر وكان
ذلك من الامير [illegible] فاضرت تلك البلد المذكورة وما حولها الشر
وانتظرت الفرصة ثم ان الدولة الفرنسوية توجهت اليها لما علمته من ذلك فدخلتها
واستولت عليها وبمجرد استيلائها عليها انفتحت لها جميع ابواب المدن التي كانت
دخلتها وكانت ابوابها مغلقة عليها وذهب الضيق عنها بالكلية ومن وقتها تشتت
الامور على الامير وظهر تغلب الدولة الفرنسوية عليه فكانت تلمسان هي المفتاح
لهم لجميع الاقليم مع تاخر اخذها وكانت لبنة التمام وقد كانوا اخذوها من الامير
قبل ذلك فحاصرهم فيها الى ان اخرجهم منها صلحا لانهم في ذلك الوقت كانوا لم يستولوا
على غيرها من المدن التي كانت تحت ولايته من المدن البرية وكانت قوته وقتئذ
متوفرة في الجملة وقلوب جميع الاهالي معه وفي المرة الثانية كانت هي آخر بلدة
اخذوها منه وكان قد بدا ضعفه وعلم الكل ان حبل النجاح قد انقطع وزيادة على
خروج تلمسان من يد الامير ان خليفته المقدام السيد محمد بن علال كان سائرا
بعسكره بارض الجعافرة ثم نزل ميرسا وقد كانت العساكر الفرنسوية باثره
وبمجرد نزوله ادركته ورامت ان تحيط به فتلقاهم عساكره وكانت على غاية
من التعب ثم انتشبت الحرب بينهما ولما قويت عليهم الجيوش الفرنسوية اجتمعوا
وجعلوا شبه قلعة من عساكرهم ثم اشتعلت نار الحرب ولم يكن الا شيئا قليلا
وحصل بعض الفشل في عسكره اذ هجمت عليها الجيوش الفرنسوية بقوتها
فقال بعض رؤساء العسكر للمذكور اركب فرسك وانج بنفسك فان الامر
شديد وكان نازلا بوسط العسكر فلم يفعل ولا استحسن ذلك القول منه اذ
كانت شجاعته ومروته تأبى ذلك فصبر ثم ما لبث بعد ذلك الا برهة يسيرة
واختل نظام العسكر بكثرة القتلى فركب فرسه اذ ذاك ولم يبارح المعتلة الا
مقدار عشرة دقائق حتى اصيب وخر من فرسه ميتا رحمه الله تعالى وقتل جميع
عسكره سوى من هرب وتوارى في الاشجار الملتفة والحاصل انه لم ينج من ذلك
الجمع الا النادر وكانت هذه النكبة عقب اخذ تلمسان فتعاظم بها الخلل وفشا

التلاشي

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

التلاشي وكثر الخلل وكان عم الأمير المتقدم اسمه سابقا اشار عليه بان يحصن تلمسان
كل التحصن ويجعل عليها قلاعا شاهقة ويجلب اليها جميع ما يلزم من المهمات والذخائر
والآلات ويتخذها قاعدة مملكته ويعيدها لما كانت عليه ايام ملوكها الاوائل بني زيان
وقال له متى بقيت في ملكك لا يحصل للامارة تاخير اصلا فكان الامر كما ذكر فبمجرد ما خرجت
تلمسان من يد الامير خرج الاقليم بجميعه من يد الامير دفعة واحدة واصبحت الفرنسوية في
التقدم الكلي وتم لها ملك الاقليم لانهم في الحقيقة ما ملكوا الاقليم بجميعه الا بعد تملكها
لها وذلك سنة (١٢٥٩) وقد كان اخبر بعض المطلعين على حقيقة الامر بانه لو
تأخر اخذ تلمسان بمقدار شهرين او ثلاثة لكانت الفرنسوية جعلت شروطا بينها
وبين الامير وخرجت له من جميع المدن التي كانت دخلتها واستولت عليها فانها ما انفتحت
اعينها الا بعد استيلائها على تلمسان ثم بعد ان ثبت قدمهم فيها شرعوا في بذل الاموال
البليغة لرؤساء الاقليم واكابره اكثر مما كانوا يبذلون لها سابقا واطلقوا لهم الاذن
التام والتصرف العام فيما يريدونه واظهروا للاهالي غاية الاحسان فاستجلبوا قلوبهم
بعظيم سياستهم وتوجهت القلوب اليهم لما كانوا يظهرونه من تمام اللطف الذي توجبه
السياسة وبها يحصل التمكن للانسان فيما يريد فاعانتهم الاعراب بسبب ذلك
على الامير بوجوه الاعانة وقاتلته دونهم وبسبب ذلك اتسع الخرق عليه واصبح امره
في الضعف شيئا فشيئا الى ان خرج من جميع الاقليم الجزائري بعسكره وجموعه الى اراضي
المفاوز والقفار ولما لم يتيسر له ولا لجموعه البقاء بها من شدة الغلاء والقحط رجع
والتجأ الى الدخول في اطراف حدود الاقليم المراكشي مما يلي حدود الجزائر بمحل كانت
برابره فوضى دهرهم دائما يقتتلون مع بعضهم ويقطعون الطرق والاحكام المراكشية
لا تنالهم ولا يسمعون قولها ولا يلتفتون اليها ولا لامرها ونهيها ولا آمر بينهم يأمر بمعروف
ولا ناهي ينهى عن منكر وانما هي تحت سلطان مراكش بمجرد الاسم فلبث مخيما هناك
نحو الثلاث سنوات او ما يقرب منها وكان في هذه المدة يشن الغارات على الاراضي
الجزائرية وعلى اعرابها الذين استجلبتهم الفرنسوية بسياستها فقاتلوه معهم وتارة
على الجيوش الفرنسوية ثم يرجع بما غنم الى تلك الاراضي والجبال ويستقر بها الى ان
ينفد بعض ما حصله من ذلك الغزو فحصل للفرنسوية بسبب ذلك غضب شديد
ولا سيما حيث لم يتمكن لها الوصول اليه لتحصنه بتلك الاراضي والجبال وعظيم المشقة
ان تجشموا الوصول اليه بما يلحقهم من الخسارات الجسيمة والمواقع العظيمة من اهالي
تلك الجبال الشوامخ وربما لا يتم لهم المطلوب ولا يظفرون بالمرغوب فبعث السلطان
مراكش عبد الرحمن بن هشام بان يخرجه من ارضه حسب الاتفاق والشروط التي كانوا اشترطوها
عليه حين محاربتهم له باراضي مدينة وَجْدَة من اطراف مملكته مما يلي حدود الجزائر
ولا سيما وان الامير كان بعد مقاتلها بتلك الاراضي غزا غزوة فلما سمعوا به خرجوا
اليه من جامع الغزوات ليمنعوه من الدخول الى الاراضي الجزائرية فحاربهم ولما
تحققوا بالهلاك جعلوا عسكرهم شبه قلعة فاحتاط بهم فلم يبرحوا الا زمنا يسيرا

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

حتى استاصلهم جميعا ولم ينج منهم احد الا من اخذ اسيرا من العسكر ومن الروساء الذين
لم يقتلوا في المعركة ثم سار مشرقا فلما وصل لاراضي قرية تموشنت صادف في طريقه
ثلاثمائة عسكري من الجند الفرنسوي كان آخذا جملة من الصناديق المملوءة بالبارود
والسلاح فلما دنا منها سلمت امرها اليه بلا ضرب ولا محاربة ووضعت السلاح وذلك
ان رئيس تلك الشرذمة قال لها لا يسعنا الا التسليم فاننا ان حاربنا فلا بد وان
تاخذ النار في صناديق البارود فنحترق يقينا وعلى كل فلسنا ناجين فاختاروا التسليم
ووضعوا سلاحهم فاستلمه عسكر الامير وبعد تسليمهم بعثهم الامير الى دائرته ومحل
مخيمه وسار مشرقا الى ان وصل الى جبال زواوه بالقرب من الجزائر فجتمع له دون عساكره
المشاة فانه قد اذن لها في الرجوع لحماية اهله ومن كان معه من الاهالي من جماعة
البرابرة التي خيم بوسطها وقد فتك في هذه الغزوة فتكا ذريعا بالعربان التي
كانت معينة للفرنسوية عليه ثم بعد رجوع الامير من هذه الغزوة الى محله من
الاراضي المراكشية كتب سلطان مراكش الى روساء تلك الجبال من البرابرة التي
كان الامير مخيما باراضيها بجموعه وعسكره ومستقرا بوسطها بان يخرجوه وجموعه
من بينهم وحثهم على ذلك كل الحث وحرضهم كل التحريض وقرأت روساء البربر
مكاتيبه على الناس بالاسواق وفي الاندية وفي جميع المحافل ومواضع الاجتماع فلم
يلتفتوا الى تحريضه لعدم اتفاق كلمتهم على ما طلبه منهم فانهم وان كانوا على غاية
من التوحش يعلمون ان الامير مجاهد في سبيل الله وقد دخل ارضهم وهم مسلمون
فتحرم مقاتلته شرعا وتقبح طبعا على انهم ان راموا ذلك فلربما يخسرون ولم يحاول
ذلك منهم سوى برابر قلعية المجاورين لمدينة مليلية من اراضي الريف فرجع سهمهم
عليهم وخسروا يومهم وامسهم فانهم حاربوا الامير فقتل منهم سبعمائة رجل في المعركة
ثم ان السلطان عبد الرحمن لما اظهر العداوة للامير وافشاها لجميع رعيته بحيث انها
اتضحت لدى الخاص والعام ورام محاربته بعث سعادة الامير سؤالا لعلماء مصر
يستفتيهم في شأنه فاجابه العلامة المحقق الشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالديار
المصرية ونص السؤال الحمد لله من خديم المجاهدين والعلماء والصالحين عبد القادر
ابن محيي الدين الى ساداتنا العلماء الابرار الافاضل الاخيار رضي الله عنكم وارضاكم
وجعل الجنة منزلكم ومثواكم جوابكم عما فعله بنا سلطان المغرب من المنكرات
الشرعية التي لا تتوقع من مطلق الناس فضلا عن اعيانهم فامعنوا نظركم فيها شافيا
واجيبونا جوابا كافيا وافيا خاليا من الخلاف ليجلو قلب سامعه عن الاعتساف
وذلك انه لما استولى عدو الله الفرنسيس على الجزائر وخلت الايالة من الامير وانقطعت
السبل وعطلت الاسباب وطالت شوكة الكافر اجتمع ذوو الرأي وتفاوضوا على ان
يقدموا رجلا من ساداتهم يؤمن السبل ويكف الظالم ويجمع المسلمين للجهاد لئلا يبقى
الكافر في راحة فيمتد يده فاختاروا رجلا منهم وقدموه لذلك فتقدم وعمل جهده
فيما قدموه له فتأمنت السبل بحمد الله وتيسرت الاسباب بعونه وجاهد في سبيله وذلك

من

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

من لدن سنة (١٢٤٦) الى سنة (١٢٦٣) هذه ولم تزل كذلك ان شاء الله فاذا بسلطان
المغرب فعل بنا الافعال التي تقوى حزب الكافر على الاسلام وتضعفنا واضر بنا الضرر
الكثير ولم يلتفت الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم اخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه ولا
الى قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن لاخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا
ولا الى قوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم على يد من سواهم الى
غير ذلك من الاحاديث الشريفة فاول ما فعل بنا اننا لما كنا حاصرنا الكافر في جميع
ثغوره نحوا من ثلاث سنين وقطعنا عليه السبل ومادة البر من الحب والحيوان
وغيرها تضييقا عليه وتضعيفا له خصوصا من جهة الحيوان لان قانون عسكره
انهم اذا لم ياكلوا اللحم يومين او ثلاثة يفرون عن طاغيتهم ولا يقاتلون ولا يلامون حتى
بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال دورو فاذا بالسلطان المذكور امدهم وهم في الضيق
الشديد بالوف من البقر وغيرها الثاني انه غصب من عاملنا الفا وخمسمائة بندقة
انجليزية الثالث انه غصب من وكيلنا اربعمائة كسوة جوخ اعددناها للمجاهدين
الرابع ان بعض المحبين في الله ورسوله من رعيته قطع قطعة من ماله الخاص به
ليعين به المجاهدين واذا بالسلطان المذكور زجره ونزعها منه وقال انا احق بها
والحال انه لم يجاهد وايضا ان بعض القبائل من رعيته عزموا على اعانتنا بانفسهم
في سبيل الله فمنعهم من ذلك واعاننا آخر من رعيته بسيوف في سبيل الله فحبسه
الى الآن زجرا له وردعا لغيره الخامس انه لما وقعت لهذا السلطان مقاتلة
مع الفرنسيس اياما قلائل ثم تصالحا اشترط عليه الفرنسيس ان لا يتم الصلح
بينهما الا اذا حل امر هذه العصابة المحمدية المجاهدين ويقبض رئيسهم فاما ان
يحبسه طول عمره واما ان يقتله واما ان يمكنهم منه او يجليه من الارض فاجابه السلطان
الى ذلك كله ثم امرني بترك الجهاد فابيت لانه ليس له علي ولاية ولا انا من رعيته
ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعا من لم يجد صبرا او اسقط من المجاهدين
ركبانا ثم اخذ يسعى في قبضي فحفظني الله منه ولو ظفر بي لقتلني او لفعل بي ما اشترطه
عليه الفرنسيس ثم امر بعض القبائل من رعيته ان يقتلونا ويأخذوا اموالنا
وكانه استحل ذلك فأبوا اجزاهم الله خيرا فاذا تصورتم ايها السادات هذه الافعال
التي تنفطر منها الاكباد وتتناثر عند سماعها العباد فهل يحرم عليه ذلك ويضمن
ما غصب ويقتل بنا ان قتلنا حسبما نص عليه المعيار ونقله عن نصوص الشافعية
والمالكية وهل المهادنة التي اوقعها فاسدة ومنقوضة لان الجهاد تعين عليه قبل ان
يفجأه العدو بسبب قربنا منه وعجزنا عن الجهاد ولان منفعتها عائدة على الكفار ووبالها
على الاسلام كما هو مشاهد حسب ما نص عليه في المعيار ايضا وهل يحل بيع البقر
لهم وقت ان حصرهم المسلمون على حرمة بيع الخيل لهم والشعير وآلة الحرب ام لا وعلى
انه لم تسعه مخالفة الفرنسيس فيما شرطه عليه من قتلنا وتفريق جماعتنا وما نشأ
عنه من ترك الجهاد بالكلية واقتحم الأمر وشق العصا وجاءنا بالجيش ليقتلنا ويأخذ

علي صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

اموالنا ويفرق جمعنا فهل يجوز لنا ان نقاتله بمقتضى ما نقله الشيخ ميارة الكبير في شرح
لامية الزقاق في آخر باب الامامة الكبرى ونصه انظر اذا خلا الوقت من الامير واجمع
الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ليمهد سبيلهم ويرد قويهم عن ضعيفهم فقام
بذلك قدر جهده وطاقته والظاهر ان القيام عليه لا يجوز والمتعرض له يريد لشق
عصا الاسلام وتفريق جماعته ففي صحيح مسلم رضي الله عنه عن زياد بن علاقة قال
سمعت عرفجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انها ستكون
هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهو جميع فاقتلوه كائنا من كان
وبسنده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اتاكم وامركم جميع على رجل
واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه اهـ ام لا يجوز لنا ذلك وترك الجهاد ليس الا
جوابكم تؤجرون وتحمدون وعليكم السلام في البدء والختام والحمد لله رب العالمين
فاجاب المذكور بما نصه الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وآله المهتدين نعم يحرم على السلطان المذكور اصلح الله احواله جميع ذلك الذي
ذكرتم حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه مثقال ذرة من
الايمان وما كان يخطر ببالنا ان يصدر منه مثل هذه الامور مع مثلكم فانا لله وانا
اليه راجعون وما قدره الله سبحانه وتعالى لابد ان يكون خصوصا وانتم جلستم بينه وبين
عدوه وكذا ضمانه لما غصب ضروري لا يشك فيه مسلم وكذا استحقاقه القصاص منه
بقتله مؤمنا عمدا عدوانا مباشرة او باكراه غيره عليه معلوم من الدين بالضرورة
والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التأويل والمهادنة التي اوقعها فاسدة
منقوضة وبيع البقر وسائر الحيوان والطعام والعروض وكل ما ينتفعون به حالة
في النازلة المذكورة حرام قطعا اجماعا ضرورة لا يشك فيه مسلم سواء في حصر
المسلمين اياهم وفي حال عدمه اذ قتالهم فرض عين على كل من فيه قدرة عليه ولو من
النساء والصبيان من اهل تلك البلاد ومن قرب منهم كاهل عمل السلطان المذكور
وفقه الله تعالى فكيف يتخيل مسلم ان معاملتهم بما ينتفعون به ويتقوون به على
البقاء في ارض الاسلام جائزة مع ذلك وان افتتح الامر وشق العصا واتاكم
بجيشه وجب عليكم قتاله وجوبا عينيا اذ هو حينئذ كالعدو والبغاة المتغلبين
الفاجئين القاصدين الانفس والحريم لعدوانه وتجاريه على ما اجمع المسلمون
على تحريمه وهو انفسكم وحريمكم واموالكم ومنعكم مما هو متعين عليكم بالاجماع من
جهاد الكفار الفاجئين لكم والمقتول منكم في قتاله كالمقتول في قتال الكفار
ليس بينه وبين الجنة الا طلوع الروح فصمموا على قتاله واعدوا له ما استطعتم
من قوة نصركم الله تعالى عليه وعلى اعداء الدين وبارك فيكم وفي كل من اعانكم
من المسلمين وخذل كل من عاداكم وخذلكم كائنا من كان وجعل كيده في نحره اهـ
وقد اقتصرت من السؤال والجواب على هذا المقدار روما للاختصار عوداً
ثم لما ايس ملك مراكش من اجتماع كلمة البرابرة على محاربة الامير وخروجهم من اراضيهم

مع

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسني. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

مع تشديد الدولة الفرنسوية عليه في ذلك بعث الى الامير وفدا فلما اجتمعوا به قالوا
له ان سيدنا يقول لك اما ان تذهب الى الصحارى والقفار واما ان تسلم امرك الي
وتدخل تحت طاعتي وعسكرك تدخله في عسكري وكل من كان منهم رئيسا يبقى على
رآسته وتفرق تلك الجموع التي هي معك والا بعثت اليكم من يفرق جمعكم فاجابهم
بان هذه الاراضي مهجورة ولا سلطة له على اهلها ولا امر له فيهم ولا نهي ولا ضرر
عليه في دخولي لهذه الاراضي حيث لا نفع له يحصل من اهلها وقد الجأتني الضرورة
الى الدخول لها وكان من المحقق ان الامير لو سلم امره اليه ودخل تحت قبضته لابد
وان يقتله قطعا وخروجه من تلك الاراضي الى الصحارى المهلكة ذات المفاوز
والقفار لا يمكنه لضعف حال من كان معه من الجموع وهم نحو خمسة وعشرين
الفا ما بين رجال ونساء واولاد ولو تكلف هو الخروج بعسكره وتركهم للبرابرة
لنهبتهم وسبت نساءهم واولادهم وهم قد انقطعوا معه والتجأوا اليه وعرضوا
اولادهم ونساءهم وانفسهم للتهلكة لاجله وابتغاء مرضات الله ورسوله فلم
يسعه الا البقاء معهم بتلك الاراضي وتسليم الامر لمدبره يصرفه كيف يشاء
جل جلاله فلما راى ملك مراكش الامير مصمما على عدم تسليم نفسه اليه وعلى عدم
خروجه من ارضه بعث اليه جيشا من جيوشه تحت راية عظيم جيوشه المسمى
القائد الاحمر وامره بمقاتلة الامير وتشتيت شمله وتفريق جموعه فسار نحو الامير
مجدا الى ان قرب من مخيم الامير على ست ساعات بعث اربعمائة فارس لتخدع
الامير وتاخذه على غرة ويظهرون بالسلم عند مرورهم على محله فاذا ظهر لهم الامير
اخذوه حيا او انهم يطلقون عليه الرصاص فيهجم فلما قربت من الاهالي تلك
الشرذمة بادرتها الاهالي بالرصاص فانجرح منهم البعض وركب الامير في جملة
من الخيول ولحقهم فرجعوا الى محلتهم خائبين وبعد ذلك بيومين او ثلاث جمع
الامير امره وغزا عليهم ليلا قبيل انصداع الفجر فهزمهم وقتل رئيسهم القائد
الاحمر بالمعمعة ثم قطع راسه واستولى الامير على جميع ذخائر ذلك الجيش
واسلحته وخيوله وبغاله ووقع ذلك قبل محاربته برابر قلعية بشهور وتقدم
ان السبب الحامل الى بعث القائد الاحمر لمحاربة الامير هو الشرط الذي اشترطته الفرنسوية
على صاحب مراكش لما انهزمت عساكره باراضي مدينة وجدة وكان صاحب مراكش
جمع لهذه الحرب الجموع الوافرة من العرب والبربر فكانت نحو الثمانين الفا ولاعجابها
بالكثرة وعدم وجود التنظيم العسكري وعدم اخذ الاحتياطات اللازمة كانت
الدائرة عليها فانهزمت في اسرع وقت وتركت جميع ذخائرها مع قلة الجيوش
الفرنسوية اذ كانت ثلاثين الفا ولما رات الدولة المراكشية ان لا قدرة لها على
مقاومة الفرنسوية وان كانت اكثر منها عددا باضعاف طلبت منها المصالحة
فاجابتها الى ذلك واشترطت عليها شروطا فكان اول شرط انها تلتزم لها
باخراج الامير من اراضي مملكتها فتعهدت لها بذلك ثم فعلت ما فعلت من

محاربته

وذلك سنة (١٢٦١) صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي
من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ.
وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

اعرابها برابر مملكتها عليه ومن بعثها القائد الاحمر لمقاتلته ولما لم يحصل لافعالها المتقدمة نتيجة
جيشت جيشا عرمرما ووجهته لمقاتلة الامير واتفقت هي والدولة الفرانسوية بأن
يكونوا يدا واحدة عليه فاتت المراكشية من ورائه ووقفت الفرنسوية قرب الحدود الجزائرية
امامه لئلا يفر الى المفاوز والقفار وقد خرجت اليه الجيوش المراكشية من فاس في ثلاثين
الفا ثم لازالت تحتشد الجيوش وتنضم اليها الاعراب والبرابر وتكثر سوادها طلبا
للسلب والنهب الى ان صارت تلك الجموع تملأ السهل والوعر ومعها اولاد [illegible]
ملك مراكش الثلاثة وهم محمد الذي تولى بعد ابيه واحمد وسليمان وحرضهم والدهم كل
التحريض على استعمال غاية الاجتهاد في المحاربة وابداء التيقظ التام وشدة الحزم
والعزم على تفريق جموع الامير وقتله او الاتيان به اليه فرحلوا مجدين بجيش جرار
يسد الخافقين الى ان وصلوا الى اراضي قلعية من اراضي الريف وخيموا بها
فجمع الامير امره وغزا عليهم ليلا حيث لا يمكن محاربتهم نهارا لكثرة عددهم وقلة
عسكره اذ لولا وجود التنظيم العسكري عنده دونهم وقوة قلوب جماعته لكثرة
تمرنهم على الحروب لما قدروا على مقاتلتهم لا ليلا ولا نهارا ولا بمقدار لحظة من
الزمان فقاتلهم تلك الليلة بطولها قتالا شديدا ودخل عسكره محلتهم الأولى
والثانية وتركوا ذخائرهم وخيامهم وانضموا جميعا الى المحلة الثالثة ثم انضم الجميع
الى محلة اولاد الملك وكانت قوته كثيرة وكل تلك المحلات التي دخلها عساكر الامير
تركت خيامها وذخائرها وعظم الامر حتى صار الليل نهارا من كثرة النيران البارودية
ولما كلت عساكر الامير والجموع التي كانت معه امرهم بالخروج من تلك المحلات والخيمات
التي كانوا دخلوها قبيل انصداع الفجر حيث لم يظفروا بالمطلوب اذ كان مقصوده
ان تكون محاربتهم اولا مع محلة اولاد السلطان فصدهم صاد عن ذلك فالتزموا
محاربتهم لتلك المحلات التي ذكرناها ولو اعانهم القدر بمحاربتهم للمحلة المذكورة
لحصلت نتيجة واي نتيجة ولكن القدر لا يغالب ثم خرج الامير من محلاتهم وخيمهم
ولم يأخذوا منها الا شيئا يسيرا من اسلحتها وبارودها وتركوها وجميع ما فيها
وكروا راجعين الى مخيمهم ثم انتقلوا الى محل غير محلهم السابق ثم لازال الامير
يتباعد عنهم وهم يتقدمون مقتفين اثره وما من دار يرحل عنها الا ويصبحون
مخيمين فيها الى ان نزل الامير وجموعه على النهر الكبير المسمى بملوية بقرب مصبه على
البحر تحت جبل كبدانة وكان ذلك المحل بقرب من الخط الجزائري على نحو سبع ساعات
ثم اقتحمت جموع الامير ذلك النهر وعبرته عشية بلا اذن منه خشية مفاجأة الجموع
المراكشية لهم وهم بذلك المحصر فتستأصلهم جملة واحدة ولا ينجو منهم احد اذ
لا قدرة لهم على مقاومة تلك الجموع ولا مفر لهم لوقوعهم بين جبل ونهر كبير عسير
العبور وبحر اذ كان الجبل غربيهم والبحر عن شمالهم ونهر ملوية امامهم ومن
جهة يمينهم الجموع المراكشية فاصبحوا لا ملجأ لهم من الله الا اليه ولما عبروا ذلك
النهر بالمشقة العظيمة نزلوا وخيموا من القرب من النهر فلم يلبثوا الا يومين

واذا

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

واذا بالجيوش المراكشية خيمت بمحلنا بالأمس فتوجه الامير بعسكره وخيالته نحوهم ووقفت
الاهالي خيامها وسارت متوجهة نحو الحدود الجزائرية فرارا من موت الى موت
ثم انتشبت الحرب بين الامير وبين تلك الجيوش على ذلك النهر وبسبب تحصن
الامير بذلك النهر والتفاف شجر الطرفاء بضفته قتل الامير منهم خلقا كثيرا وقد
هجموا مرات على النهر وقصدوا العبور فلم يمكنهم ذلك لعسر العبور وعدم فترة
النيران المتتابعة وكان كل من رام العبور سقط من على ظهر فرسه اما بالرصاص
او بطغيان الماء فيأخذه مع فرسه الى البحر اذ قد استبحر ذلك النهر عند قربه
من البحر ثم لما طال الامر عليهم ويئسوا من العبور اليه وجهوا جيشا آخر الى محل
بعيد عن معمعة القتال ليعبر النهر بلا معارض فلما رآه الامير عبر التفت اليه وفي صحبته
السيد قدور بن علال وترك جملة من خيوله لتمنع ذلك الجيش الذي كان الامير مواجها
له مع رئيس خيالته المرحوم محمد بن يحيى فتكاثرت عليهم الجموع وهجمت بقوة على
النهر فعبرته وانهزم المذكور بخيوله ولحق بالامير اذ قد استحر القتل في جماعته ثم امره
الامير بالرجوع وبذل الجهد في المدافعة فقال له المذكور لم يبق الا الموت فقال له ارجع
ومت فرجع بمن معه فاصيب باول هجوم ومات وانهزمت خيوله فعبرت الطائفة
التي كان المذكور في مقابلتها والتقى الجمعان على الامير فقاتلهم مدة ثم انهزم قاصدا
عسكره المشاة النظامي الذي كان تركه خلفه وكانوا قليلين جدا وهم بالنسبة الى
عددهم كالشعرة البيضاء في الثور الاسود وقد كان الامير قال لرئيس عسكره اننا
نحاربهم على النهر ثم ان تكاثرت علينا الجموع فاننا نلتجئ اليكم وندخل وسطكم وتجعل
العسكر قلعة مربعة الاركان على العادة عند كل شدة ثم ترسل النيران المتتابعة
عليهم الى ان نفنى او يجعل الله لنا فرجا ومخرجا ثم لما سار الامير بخيوله قاصدا عسكره
المشاة المذكورين اتفق انه صادف عسكره بطريقهم واديا فقال لهم كبيرهم ان
خيول الامير جاءت منكسرة فهلموا مسرعين لنقطع هذا الوادي قبل وصول الخيول
الينا وتراكمها علينا ثم نجعل القلعة المذكورة فتفرق العسكر ليقطع ذلك الوادي
ثم تجتمع بعد ذلك فاختل نظامه عند قطعها لعسر عبورها وسرعة وصول
الشدة اليهم اذ لم يكن الا مقدار عشر دقائق حتى دهمتهم خيول الامير المنهزمة
فشتتهم وفر رئيسهم في جملة من فر ولشدة الامر لم يمكنهم الاجتماع وفاتهم
التدارك مع ذهول العقول واندهاشها ولم يبق للتدبير مجال وعند ذلك
تقطعت بالامير الاسباب وتفرق جمعه وقتل من ذلك العسكر من قتل واسر
منه من اسر بلا شديد محاربة لاختلال نظامهم ثم رجع الامير بمن بقي معه من
الخيول على تلك الجيوش ليلقي نفسه في الهلاك ولم يلذ له البقاء بعد جماعته
وخاطر بنفسه مرات كل المخاطرة وصارت المكافحة بين خيوله وخيولهم يكر
عليهم هو تارة ويكرون عليه اخرى وهكذا من وقت الضحى الى وقت الغروب
ثم لما وصلت جموع الامير الى الحدود الجزائرية من المحل المسمى بعجرود عند الغروب

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

ولت الجيوش المراكشية عنها ولمدافعة الامير تلك الجيوش لم ياخذوا من جموعه سوى العسكر
الذي قدمنا ذكره وكانت الجيوش الفرنسوية تجتمع بالقرب من الحد الجزائري ينتظر بها
رئيسها المونسنيور قدوم دوكدومال ابن الملك فليب عليه ليتقدم بها نحو الامير بسبب
الاتفاق الواقع بين الدولتين ولما وقع بالامير ما وقع وتفرقت جموعه وقتل من
عسكره من قتل واسر منه من اسر في ذلك اليوم الذي يكاد ان يشيب فيه الرضيع
طلب الامير النجاة والخلوص بمن بقي معه من الخيول والذهاب الى الصحراء ذات
المفاوز والقفار فلم يتمكن له ذلك لكون جميع الطرق التي هي امامه كانت مسدودة
من جميع جهاتها بالعساكر الفرنسوية وبالعسس في جميع المحلات وجميع المظان
التي يمكنه الذهاب منها والخلوص من جهتها الى الصحراء وكان الامير قصد محلات
متعددة للعبور منها الى المفاوز فوجدها كلها معمورة بالعسس بحيث انه لا يمكنه
النفوذ منها بالحريم والاولاد ثم قصد السيد المختار ابو تشيش رئيس جبل بني يزناسن
من قبائل البربر لما يعلمه من تمام المحبة والمودة التي كانت بين والد الامير وبينه
فسار نحوه مجدا يعلو جبلا وينزل آخر الى ان قرب من منزله فارسل اليه ليواجهه
لعله يشير عليه بامر او يجد عنده مخلصا فامتنع من مواجهته بعد ان ارسل اليه
جميع ما يحتاجه هو وجماعته من الطعام وعلف الدواب وقال لمن اوصل ذلك
سلموا على الامير وقولوا له انه لا يقدر على المخاطرة بنفسه واولاده ومن يخصه
ويعرضهم للهلاك فان المخاطرة شرعا لا تجوز وحمايته غير ممكنة لامثالي اذ هو مطلوب
لدولتين وهاهما حملتا عليه بقوتهما وخيلها ورجلها فانا لا اقدر على المدافعة
عنه بوجه من الوجوه ولا يقدر على ذلك الا دولة من الدول لما ترون ممن هو شاهد
فالعذر واضح فاتضح حينئذ للامير ان لا مخلص له لوجود الحريم والاولاد ولا يمكن
ان يتركهم لغم العدو وينجو بنفسه فحينئذ استشار من كان معه في ان يسلم
نفسه للدولة المراكشية فكلهم أبوا عليه ذلك واشاروا عليه بان لا يفعل لما يعلمونه
فيهم من شدة الغضب وزيادة التوحش وتمام الغلظة وعظم الحمق وقد شوهد
منهم ما يصدق ذلك فانهم لما قبضوا اخ الامير السيد ابا بكر عليه رحمة الله في ذلك
النهار وكان مجروحا بالرصاص في راسه مع ابن اخيه السيد محمد الصادق ابن السيد
محمد السعيد رحمهما الله تعالى اخذوهما وواجهوا بهما اولاد ملك مراكش المذكور اسمهم
سابقا لينظروهما وكانت الغوغاء سلبتهما ثيابهما كلها حتى ساتر العورة وقدموهما
اليهم على هذه الحالة فنظروهما وامروا بهما فغلا بالقيود في اعناقهما على تلك الحالة
مع من مسكوه من عساكر الامير ولم يامروا لهما بما يواري عورتهما وليت شعري كيف
ساغ لمروءتهما ذلك مع ما اتفق من ان رجلا من قبيلة المطالسة عرفهم بهما
وقال لهم هذا اخو الامير وهذا ابن اخيه ويعلمان انهما ابناء مجد وفضل وقد قال عليه
الصلاة والسلام اكرموا عزيز قوم ذل ثم ردوهما الى الاسرى وبيتوهما تحت اديم
السماء

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخط القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

السماء وهم حفاة عراة والليلة شديدة البرد قبح الله من لا مروءة له ثم حزوا راس السيد
ابي بكر المذكور واخذوه الى فاس في جملة رؤس من مات من جماعة الامير ووضعوا
تلك الارؤس على سور مدينة فاس مدة ايام ثم واروها بعد ذلك واما السيد
محمد الصادق المذكور فانهم اخذوه الى فاس مقيدا في اهانة شديدة وحبسوه بها
سنة ونصفا ثم اخذوه الى مراكش ثم اخذوه من عسكر الامير وبالجملة فقد كان
من المحقق عند جماعة الامير ان لهم مثل هذه القبائح واعظم ولذا لما استشار من
معه في تسليم امره للمراكشية ابوا عليه ذلك كلهم حتى قيل له ان سلمت نفسك اليهم
فلا بد وان ياخذوك الى فاس ويلبسوك قميصا من خشب الى ان تموت كما هي
عادتهم في قتل امثالك فان القوم متوحشون وشدة غضبهم تمنعهم من الافعال
الحميدة شرعا او طبعا فبعد ذلك الجع امره على ان يسلم نفسه للدولة الفرنسوية
لما هو محقق من سيرهم مع القوانين السياسية وكونهم لا يهينون الروساء
والاكابر من ذوي البيوت ولو كانوا اعداء لهم وبسبب ذلك لا يمكن ان يحصل له
منهم ادنى اهانة او ضرر فكتب لرئيس جيوشها الذي كان مخيما بالقرب من الحدود
الجزائرية ان يؤمنه ليسلم امره الى حكومته واشترط عليه شروطا وهي ان يحمله
دولته وجميع من يريد الذهاب معه الى الاسكندرية او غيرها من البلاد الاسلامية
وان لا يتعرضوا لمن اراد السفر معه من روساء عسكره واغوات جيشه وان
من بقي عندهم من مشايخ جموع الاهالي التي كانت معه لا يتعرضون له بسوء لا في
نفسه ولا في ماله فاجابه ذلك الرئيس بقبول تلك الشروط وكتب له وختم
فحينئذ سلم نفسه لدولته وذلك في اوائل المحرم سنة (١٢٦٤) وتوجه الى
معسكرهم فتلقوه بالترحيب والتكريم والجلالة والتعظيم وتوجهوا به الى جامع
الغزاة المسمى مرسى من مراسي الجزائر مما يلي الحدود المراكشية واركبوه منها
في البحر الى وهران ثم منها قطعوا به البحر الى بلادهم وانزلوه بمدينة طولون وبقي
فيها نحو ثلاثة اشهر ونصف فاتى اليه بها ارباب المجلس الكبير من باريز قاعدة
ملكهم واستنطقوه عن محاربته لهم وكيف اباح قتل الثلاثمائة عسكري التي
كانت سلمت نفسها اليه باراضي قرية تموشنت فقتلت صبرا وهي ومن كان
منها من اسرى واقعة جامع الغزاة ولم يترك سوى روسائها فاجابهم بان
محاربتي معكم كانت للمحافظة على وطني وجريا على ما تقتضيه الانسانية وتحكم
به من وجوب مدافعة الشخص عن نفسه وعمن يلوذ به وان اهل اقليمي
سلموا الي امرهم للذب عنهم والقتل دونهم فيجب علي المحاماة عنهم ما دامت
روحي في جسمي واما العسكر الذي قتل صبرا فلم يكن ذلك بامر مني ولا استحسنته
ولا حمدت من فعل ذلك الفعل وانما الرئيس الذي كنت جعلته خليفة عني بعد
ذهابي غاز ربا هو الذي سولت له نفسه ذلك الفعل القبيح فتصفحوا تاريخ قتلهم

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

نزول الامير ولاتزال تدق وتنفر النغمات من وقت العصر الى الغروب ثم تاتي بعدها
الموسيقى العسكرية ولاتزال تصدح نغماتها المطربة الى ان ينام الناس وهكذا
في جميع تلك الايام والليالي التي استقام فيها بتلك البلدة ثم سافر منها الى
بلدة اخرى ومنها الى قرية ابنواز فانزلوا الامير في قصر عال بها من اعظم منازه
الدنيا اعده بعض ملوكهم ليقيم فيه ببعض ازمنة الصيف والخريف مطل
ذلك القصر على نهر تجري فيه السفن والبوابير الصغيرة على احسن ما يرى من
النضرة والبهجة ويحيط به بستان عظيم فيه مياه وصهاريج محتو على انواع
الاشجار والازهار وقد لبث الامير فيه مع اهله وحشمه ثلاث سنوات ٧٧
ثم ان ملك الدولة الفرنسوية نابليون لما تمت له المملكة على دولته ولم يبق
له معارض اختار تسريح الامير ليوفي له بالشرط الذي كان اشترطه الامير
على دولته حين تسليمه نفسه اليهم خشية ان تبقى دولته مذمومة باخلافها
الوعد ونقضها العهد ويخلد ذلك في كتب التواريخ كما فعلت دولة اسبانيا
مع اهل الاندلس فان ملكها نقض في مدة يسيرة عهده وابقى فعله القبيح مسطرا
الى انتهاء الابد ثم استاذن نابليون الدولة المصرية في قبولها دخول الامير
لمملكتها فابى واليها محمد علي باشا ذلك فاستاذن نابليون شوكة السلطان
عبد المجيد خان في قبوله دخول الامير لمملكته فاذن له في ذلك فبعثه اليه ليجعله
تحت مراقبته وليكون كالكفيل له وبعد ان قبل حضرة السلطان دخوله
لمملكته استحسن نابليون ان يفرق بينه وبين اخوته فاخذهم من ابنواز الى
الجزائر واسكنهم في مدينة بونة ليجعلهم كالرهونين ويبقيهم فيها قطعا لالسنة
ارباب دولته وتامينا لهم وتسكينا لافئدتهم كي لا يحصل لهم من الامير ادنى نكد
وتشويش مع وجود اخوته تحت قبضتهم وحسما لما تعطيه افكارهم من كون
الامير لا يصبر عن العود الى وطنه ومحل امارته وعزه وانه بمجرد خروجه للبلاد الاسلامية
يرجع الى الجزائر وكانت افكاره هو غير افكارهم ولم يلبث الامير بعد تفرقة اخوته
الا ثلاثة اشهر وجاءه ملك افرنسا نابليون ومعه وزيره الى محله وهو بذلك
القصر بقرية ابنواز واعطاه ورقة تسريحه بيده حيث انه لم يسمع من جميع وزرائه
وارباب دولته ادنى انكار عليه لما فعله من تسريح اخوته الى الاقليم الجزائري ولا سمع
في جرنال انكار ذلك عليه في مدة تلك الشهور الثلاثة وكان تسريح الامير الى
الاستانة سنة (١٢٦٩) وقبل خروجه من باريز عاصمة ملكه حلفه نابليون
على المصحف الشريف على انه لا ينقض العهد ويحارب الدولة الفرنسوية مدة
حياته ولا يرجع الى الاقليم الجزائري اصلا ثم اهداه سيفا مجوهرا وقال له ما اظن
انك ترجع الينا وتضربنا بسيفنا فاجابه الامير بقوله وهل بعد الاحسان
يفعل ذلك من فيه ادنى مروءة او كمال عقل ٧ ثم ودعه وسافر الى الاستانة
في مركب حربية ومر في طريقه على جزيرة صقلية من بلاد الطاليان وذهب الى

٧ ورتب له نابليون في السنة خمسة الاف ليرة على ان تصرف له مشاهرة صح

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

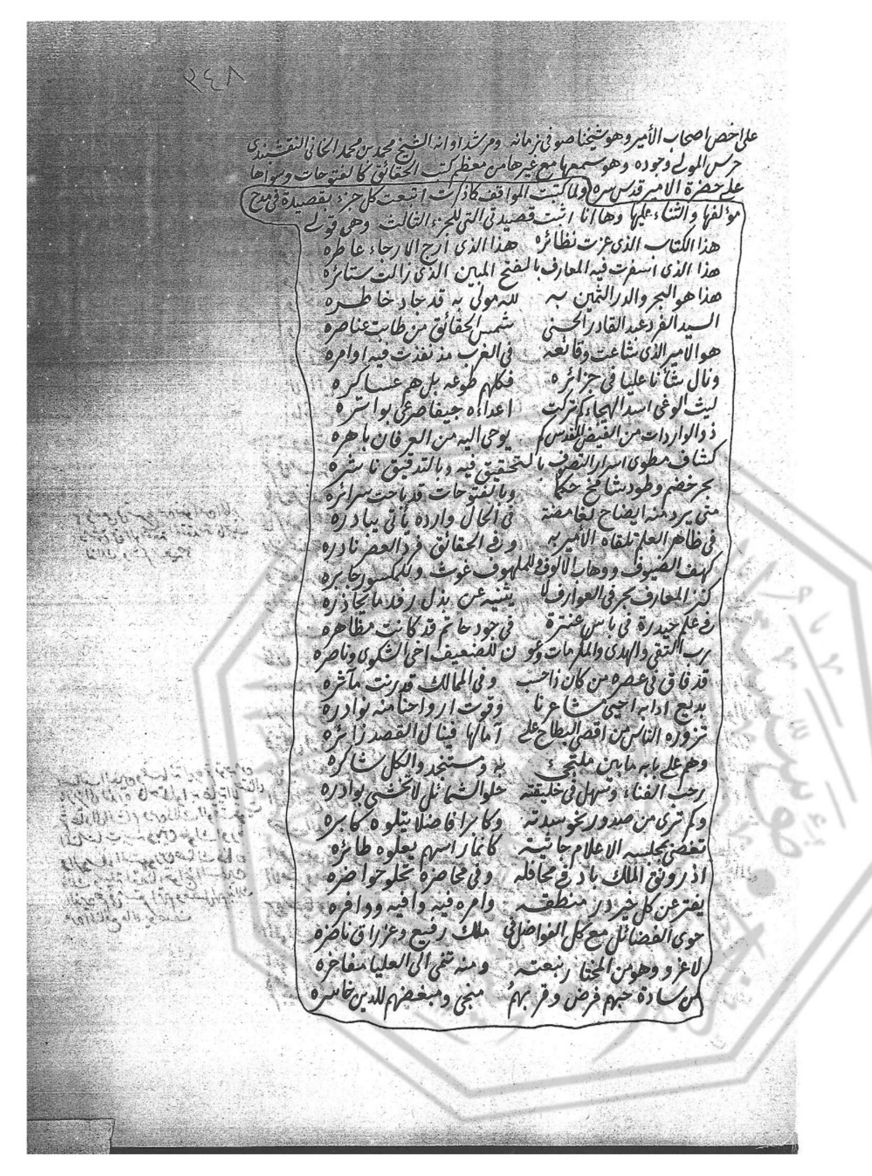
المحل الذي تنبع فيه النار من اراضها وشاهد في ذلك من وافر قدرة المولى ما يبهر العقول
و راى النار تقذف بالصخرة العظيمة فتصعدها الى جو السماء ثم تسقط الى الارض
وتصير رمادا وهذه النار كلما مضت مدة من الزمان تنبع في تلك الارض من محل غير
المحل الاول وتبقى فيه شهورا ثم تنبع من غيره وهكذا ثم قضاء وطره من مشاهدة
هذه الآية الباهرة سافر الى ان وصل الى بغاز الاستانة فابقوه ثلاثة ايام لاجل
انتظار الاذن لتلك المركب الحربية في الدخول الى البغاز فاذن لها في الدخول فدخلت
فلما ارست بمرسى الاستانة اطلقت عدة مدافع اعلانا بقدومه فقوبلت بمثلها ثم⁷
واجتمع بحضرة السلطان عبد المجيد خان فرحب به واكرم نزله ثم قال له اننا قد اخترنا
لك ان تسكن في مدينة بروسيا من مملكتنا فتوجه اليها⁵ وسكنها محترما معظما بها
لدى الخاص والعام الى ان وقعت بها زلازل هائلة خربت معظمها فحينئذ طلب
الامير ~~معظمها فحينئذ طلب~~ الانتقال منها الى دمشق الشام فاذنت له فتوجه اليها ودخلها
في العشرين من ربيع الاول سنة (١٢٧٢) باهله وخدمه وحشمه واتخذها دار اقامة
ولما دخلها اطلقت من قلعتها عدة مدافع اعلاما بقدومه واستبشارا واقام بها على
غاية ما يكون من العز والاحترام عند الخاص والعام تقصده الوفود من جميع الاقطار
وتتزاحم على رحابه اقدام العلماء والاشراف والفضلاء والاكابر وارباب الحاجات
فيكرم الجميع وينزل كل انسان منهم منزلته ومدح بقصائد لو جمعت لبلغت مجلدا وكان
يجيز على الشعر الجوائز العظيمة ويعرف للشعراء حقهم ويعظمهم وكان له الجاه العظيم
عند جميع الملوك يحمي الذمار وينصر المظلوم ممن بغى عليه وجار شمسا في كل ملا
قمرا نيرا في سماء العلا ذا نفس زكية واخلاق هاشمية رضية جزيل الصدقات عظيم
الاحسان والمبرات فارسا شجاعا ليثا في الهيجا موئلا عظيما لمن اليه اوى والتجا⁴
ثم في سنة (١٢٧٩) توجه الى الحجاز متجردا لطلب المرشد وبقي هناك سنة يقيم بمكة
تارة وبالمدينة المنورة تارة وانقطع ثمة الى الله كل الانقطاع واستعمل بمكة المشرفة
خلوات ثم سأل من شريف مكة ان يعطيه جملة من العسكر فكان يذهب الى غار
حراء ويعتكف به ليالي متعددة وفي كل ليلة ~~جمعة ياخذ المصحف الشريف ويقف~~
~~بباب الغار وينادي يا سادتي عبدكم بالباب يتوسل اليكم بكتاب الله ان تنظروه~~
~~بكسير انظاركم وتتوجهون اليه بكليتكم وعظيم التفاتكم او بكلام هذا معناه على~~
~~ما نقله في الابريز من ان اصحاب الوقت يجتمعون كل ليلة جمعة هناك فحصل له ما~~
~~ادركه منهم عناية ثم حصل للامير بسبب ذلك غاية التوجه منهم~~ وصادف العارف بمكة⁷
بالله تعالى المرشد الناصح الشيخ محمد الفاسي الشاذلي قدس سره فاخذ عنه الطريقة
الشاذلية وانتفع به وفتح عليه بسببه مع ما سلف له من الخلوات قبل ذلك
الفتح الكبير الذي لم يسمع بمثله في اهل عصره واعظم شاهد على ذلك كتابه المسمى
بالمواقف العرفانية ففيه ما يبهر العقول ويحير افكار الفحول من الواردات
واسرار التنزلات وقد بلغ ثلاث مجلدات وكنت نقلتها بخطي تبركا بها وقرأتها
على

⁷ دخلها وذلك نهار الجمعة سابع عشري ربيع الاول سنة (١٢٦٩) فاحتفل به غاية الاحتفال صح

⁵ ووصلها نهار الاثنين سابع ربيع الثاني من السنة المذكورة صح

⁴ ثم في سنة (١٢٧٣) توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ثم رجع الى دمشق واقبل على قراءة الكتب الحديثية كالبخاري ومسلم وكان قسم من دار الحديث قد استولى عليه بعض الاجانب فسعى في استخلاصه منه ببذل اموال طائلة وفي سنة (١٢٧٧) وقعت الواقعة المشهورة بدمشق وهي حادثة فوق العادة فبذل الامير جهده في اسعاف المسيحيين قياما بما يوجبه امر الدين ولشجاعته وحسن تدبيره تيسر انقاذ الوف منهم فاهدته الدولة العلية وسائر الدول العظام علامات الشرف من الدرجة الاولى ثم سافر الى حمص وحماه وزارهما [illegible]

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).



٢٤٨

على أخص أصحاب الأمير وهو شيخنا صوفي زمانه ومرشد أوانه الشيخ محمد بن محمد الخاني النقشبندي
حرس المولى وجوده وهو سمعها مع غيرها من معظم كتب الحقائق كالفتوحات وسواها
على حضرة الأمير قدس سره ولما كتبت المواقف كما ذكرت اتبعت كل جزء بقصيدة في مدح
مؤلفها والثناء عليها وها أنا أثبت قصيدتي التي للجزء الثالث وهي قولي

هذا الكتاب الذي عزت نظائره ... هذا الذي أرج الأرجاء عاطره
هذا الذي أسفرت فيه المعارف بالـ ... ـفتح المبين الذي زالت ستائره
هذا هو البحر والدر الثمين به ... لله مولى به قد جاد خاطره
السيد الفرد عبد القادر الحسني ... شمس الحقائق من طابت عناصره
هو الأمير الذي شاعت وقائعه ... في الغرب مذ نفذت فيه أوامره
ونال شأناً علياً في جزائره ... فكلهم طوعه بل هم عساكره
ليث الوغى أسد الهيجاء كم تركت ... أعداءه جيفاً صرعى بواتره
ذو الواردات من الفيض المقدس كم ... يوحي إليه من العرفان باهره
كشاف مطوي أسرار التصوف بالـ ... ـتحقيق فيه وبالتدقيق ناشره
بحر خضم وطود شامخ حكماً ... وبالفتوحات قد باحت سرائره
متى يرد منه إيضاح لغامضة ... في الحال وارده يأتي يبادره
في ظاهر العلم تلقاه الأمير به ... وفي الحقائق فرد العصر نادره
كهف الضيوف ووهاب الألوف وللـ ... ـملهوف غوث وللمكسور جابره
كنز المعارف بحر في العوارف لا ... يثنيه عن بذل رفد ما يحاذره
في علم حيدرة في بأس عنترة ... في جود حاتم قد كانت مظاهره
رب التقى والهدى والمكرمات وعو ... ن للضعيف أخي الشكوى وناصره
قد فاق في عصره من كان ذا حسب ... وفي الممالك قد رنت مآثره
بديع آدابه أحيى مشاعرنا ... وقوت أرواحنا منه نوادره
تزوره الناس من أقصى البطاح على ... آمالها فينال القصد زائره
وهم على بابه ما بين ملتجيء ... به ومستنجد والكل شاكره
رحب الفناء وسهل في خليقته ... حلو الشمائل لا تخشى بوادره
وكم ترى من صدور نحو سدته ... وكابراً فاضلاً يتلوه كابره
تغصّ بمجلسه الأعلام جاثية ... كأنما رأسهم يعلوه طائره
إذ رونق الملك باد في محافله ... وفي محاضره تحلو حواضره
يفتر عن كل خير در منطقه ... وامره فيه وافية ووافره
حوى الفضائل مع كل الفواضل في ... ملك رفيع وعز راق ناضره
لا غرو وهو من المختار نبعته ... ومنه تنمي إلى العليا مفاخره
من سادة حبهم فرض وقربهم ... منجي ومبغضهم للدين خاسره

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ بِهِ النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطِّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).

الى ان استولى الفرنسيون على الجزائر ووقع ما مضى شرحه وكانت وفاة والد الأمير
السيد محيي الدين سنة (١٢٤٩) عن اثنين وخمسين عاما وكان عالما زاهدا عابدا
مجد شام بيا صوفيا تشد اليه الرحال ذا ابهة وصولة وعظمة وقد كساه الله تعالى
من الهيبة والعظمة عند اهل اقليم الجزائر ما لم يتفق لغيره وكان مقصودا لقضاء
الحوائج الدينية والدنيوية وناهيك انه طلب ان يتولى الملك لاهل اقليمه لما استولت عليه الفرنسيون ولم يزالوا به
[illegible] مدة اربع سنوات وهو يمتنع ولما راى الامر متعينا
عليه اذن لولده الامير كما ذكرنا فيما تقدم وفي هذا القدر من سيرة الامير لأولي الدراية
اكمل كفاية والاستقصاء لسيرته العلية يحتاج الى مجلدات افاض المولى على روضته
كوامل غيوث الرحمات

ذكر طبقات مشاهير الدمشقيين من اهل القرن الرابع عشر

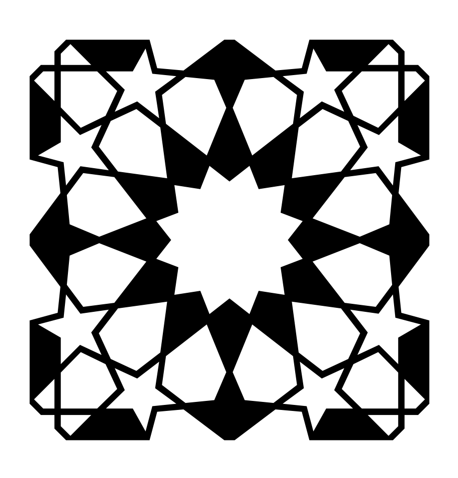
محمد سعيد افندي بن محمد امين بن محمد سعيد بن علي بن احمد المعروف بالاسطواني
الحنفي الدمشقي قاضي دمشق الشام واحد اعيانها ورؤسائها العظام [illegible]
[illegible] ولد سنة (١٢٣٧)
بدمشق ونشأ بها على طلب العلوم واخذ عن فضلائها وابتدأ في العلوم العربية والوسائل
الى العلوم الشرعية عند الشيخ طاهر التاجي والشيخ عبد الله الحلبي والشيخ حسن الشطي
وحضر عند شيخ الشيوخ المحدث الشهير الشيخ عبد الرحمن بن محمد الكزبري واجازه بما حواه ثبت
والده المذكور واخذ عن العلامة الشيخ سعيد الحلبي والامام الشيخ حامد العطار والشيخ
عبد الرحمن الطيبي واجازوه جميعا بما يجوز لهم ولم يزل مقبلا على الاشتغال والاخذ عن
كمل الرجال حتى فاق واشتهر وتفنن ومهر واستفاد وافاد وبلغ المراد وولي خطابة
الجامع الاموي سنة (١٢٥٦) فخطب به سنين عديدة (وفي سنة ١٢٥٨) قصد الديار
الحجازية واستجاز من فضلاء هاتيك الاباطح الذكية فاخذ عن العالم الزاهد الشهير
الشيخ محمد بن احمد العطوشي واجازه باسناد عال جدا واخذ عن العلامة الشيخ يوسف
الصاوي المالكي في المدينة المنورة واستجاز من الامام العارف بالله تعالى صاحب
الكرامات الشهيرة الشيخ حسين سليم الدجاني مفتي يافا فاجازه بمروياته ومصنفاته
واستجاز بالمراسلة من العلامة الشهير في الآفاق الشيخ ابراهيم الباجوري واخذ
الطريقة الاحمدية عن المرشد الكامل الشهير الشيخ ابراهيم الرشيد فلقنه الذكر والبسه
الخرقة وتلقن الذكر ايضا ولبس الخرقة من الامام العالم العابد الحسيب النسيب
فضل باشا بن العلوي علي بن محمد بن سهل مولى الدويلة واجازه بما يجوز له روايته
عن مشايخه منهم العارف الجليل عبد الله بن حسين بن طاهر العلوي واسانيده
معروفة في مؤلفاته الشهيرة وللمترجم اجازات عن مشايخ كثير من غير ما ذكر وكان
حسن الاخلاق كريم السجايا واسع الصدر لطيف المزايا متكلما بالصدق قوالا
بالحق لا يبالي في اجراء الحقوق ودفع المظالم محبوبا للولاة والحكام مهابا مقبولا
للخاص والعام وانتخب للعضلات ومهمات الامور فتعين في المجلس الكبير الملكي

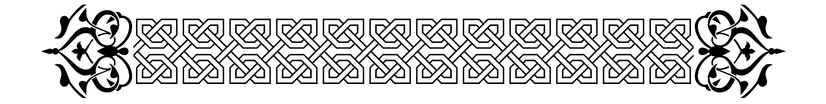
ذا الشام

٤ وخلف رحمه الله عشرة من البنين وستا من البنات وزوجة واربع امهات اولاد وكان طيب الله ثراه مربوع القامة معتدل الجسم ابيض اللون اسود الشعر كث اللحية اقنى الانف اضبط اي يعمل بيساره جميع ما يعمله بيمينه [illegible] يمشي الهوينا وكانت له كرامات كثيرة [illegible] ... وسعة علمه [illegible]

٥ طاهر افندي المفتي من طبقات المفاتي
بعده
محمود افندي حمزة المتوفى سنة ١٣٠٥ في محرم من طبقات المفاتي
محمد سعيد افندي

نماذج من مخطوط : ترجمة الأمير عبد القادر التي انتزعها الشيخ القاسمي من كتاب "نخبة ما تُسَرُّ به النواظر التّامّ" تأليف الشيخ أحمد بن محيي الدين الحسنيّ. وهي بخطّ القاسميّ في كتابه الموسوعيّ (تعطير المشام).



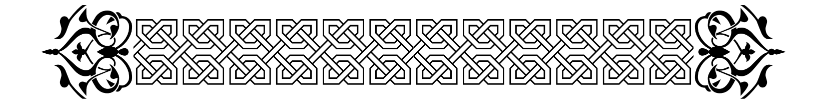


نماذج من مخطوط (نخبة ما تُسـرُّ به النواظر) -الكتاب التام-

ومنه انتزع الشيخ القاسمي ما يتصل بترجمة الأمير عبد القادر

وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعي (تعطير المشام)

وهذه النسخة بخط المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني




بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى

بعد السلام على سيدي المعظم

اروم من سماحتكم جواب ما استشكله بعضهم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام وذلك انه كان
بينه وبين ابيه عليهما السلام مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية او اكثر على ما نقلوا وكانت مدة
فراقه ثماني عشرة او اربعين او ثمانين سنة فلم لم يراسل سيدنا يوسف اباه عليهما السلام
في هذه المدة بكتاب او برسول مع علمه بشغف ابيه به وسهولة ذلك عليه لما ذكر من
المسافة بينهما او ضحوك الجواب عن ذلك ولا يحضرني هل ذكر هذا الاشكال احد من
المفسرين او المحشيين وعلى كل المرام تحقيق ذلك لا زال بدركم في سماء الافادة
طالعا وهاطل فرائدكم على المستفيدين هامعا في ٢٣ رمضان المعظم سنة ١٣٠٨

محسوبكم قاسمكم ...
محمد جمال الدين
عفي عنه

الحمد لله

الجواب عن ذلك والله اعلم هو انه لا يخفى ان الحضرة الالوهية متفردة
الغيرة ولا تقبل ان يلاحظ معها غيرها او يتوجه لسواها كل التوجه
ومشهدات التوجه لسواها فلا بد ان تفرق بين المتوجه والمتوجه
اليه امتحانا منها لهما وهذه سنتها في جميع مخلوقاتها فهي لما رأت
تعلق سيدنا يعقوب عليه السلام بالحضرة اليوسفية لجمالها التي البستها
اياها ونشرة تعلقه بها اوجبت لهما ما اوجبت من تلك الفرقة جريا منها
على عادتها ولما فهم سيدنا يوسف منها ذلك ترك البعث لوالده والاخبار
عنه مع قرب المسافة وكونه كان عزيز مصر ووكل الامر الا خبار ربه الى الله
في الوقت الذي يريد فصبر تلك المدة وكل ذلك لحكم لا يعلمها الا الله
تعالى وهذا غاية ما حضرني في الوقت والسلام

احمد بن محيي الدين
الحسني
...

سؤال من الشيخ جمال الدين القاسمي
وجوابه من الشيخ أحمد الحسني الجزائري

دولتنا ان يجعلك واليا على الجزائر واياك ان تقبل ذلك منه الان
فانك ان قبلت ذلك منه اشترطت عليك دولتنا شروطا
ثقيلة ورتبت عليك اموالا باهضة ولكن الاولى والاحسن
والاوفق بك والاليق انك تتربص الى غير هذا الوقت فان
دولتنا ستحتاج اليك عند محاربتها الدولة من الدول العظيمة
كالالمان او الانكليز ووقتئذ تملكك الجزائر باخف شيء من
المال وايسر شرط فركن الامير لمقالة التوصرقه فيما نطق به
واشار به عليه لما يعلمه فيه من المحبة مع عدم نفاق الا ورجح في كلامهم
واغلب الظن ان يكون ذلك القول منه نصيحة لا خديعة
على ان الخديعة لا تخفى على مثل الامير لعظيم ذكائه ووفور عقله
ودهائه وبعد ذلك واجه نابليون فعرض عليه الامر فلم يقبله
واعتذر بانني رجل كبير السن لا قدرة لي الان على حمل اثقال
التولية فانها تحتاج الى عنفوان الشباب وصحة الجسم فقال
له انما اجبتني بلسانك لا بقلبك وقد لاح لي مما وقع
للامير مع نابليون من
عرضه عليه تولية الجزائر وعدم قبولها ان تكون ذلك تعسيرا
لما كان كتبه سيدي الوالد لاخي سيدي محمد السعيد في
مكتوب بعثه اليه من الحرم المكي بعد ان حج ورجع من جميع
المناسك

ومراد نابليون ان يجعل الامير كملوك الهند الذين هم تحت الانكليز وكملوك مصر وتونس الان لا انه مستقل كما كان ولذا لم يقبل الامير ذلك منه والله اعلم صح

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخطّ المؤلّف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

ماقولكم في رجل طلق زوجته اولا طلقه
واحدة ثم طلقها ثلاثا في كلمة واحدة ثانيا
بان قال لها طلقتك ثلاثا فهل يجوز له ان
يردها الى عصمته ام لا الجواب

نعم يجوز له ان يردها الى عصمته على ما صرح
به بعض علمائنا المالكية وغيرهم من السلف
قال ابن سلمون في نوازله الطلاق اذا اوقعه
ثلاثا في كلمة واحدة انما تلزمه طلقه واحدة
لان الله تعالى انما ذكر طلاق الثلاث مفردا فلا
يصح ايقاعه الا كذلك وهو قول علي وابن عباس
رضي الله عنهما وجماعة من الصدر الاول و
قال به اهل الظاهر وطائفة من العلماء واخذ
به جماعة من شيوخ قرطبة ابن زنباع وابن
عبد السلام واصبغ وابن حبيب وغيرهم
بالاندلس فعلى قول هؤلاء السادات الاجلاء
طلاق الثلاث دفعة واحدة في كلمة
واحدة يعد طلقة واحدة فصارتا طلقتين
مع التي قبلها فترد له بعقد جديد اهـ

الحمد لله وحده
ما سطر بباطنه صحيح
وجرى عليه جماعة
من المالكية المذكورين
فيهما و[illegible] بهم كاتبه [illegible]
قاضي الاندلس احمد بن محي الدين الحسني

نموذج من فتوى الشيخ المفتي
أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري

الحمد لله وحده

ومما هو مجرب لتوسعة الرزق ان يذكر الانسان يوم الجمعة
يا مغني اغنني عن العوالم كلها بالانقطاع اليك واعني على
اموري بصدق التوكل عليك . عشر جمع متواليات كل جمعة
عشرة الاف ويستغفر الله تعالى الف مرة كل صباح من تلك الايام
ويقول بعد المغرب لا حول ولا قوة الا بالله الف مرة في تلك
الايام فان الله تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب وقد جربت
ذلك واستعملته فصح
والحمد لله احمد بن محي
الحسني

والاستغفار والحوقلة المذكوران يذكران
في كل يوم من ايام الاسبوع
فاذا استعملت ما ذكرناه بصدق النية
وصفاء الطوية يحصل المقصود
ان شاء الله تعالى
بمنه وكرمه

نموذج من أذكار الشيخ
أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري

وذاع، وملأ القلوب والأسماع، وكانت ألوية النصر تخفق على
رؤوسهما حيثما توجّها حتّى كادت سطوتهما تمنع جميع
السّفن الإفرنجية من الجولان في البحر لما وقع لأجفانهم بمراكبهم
وكانت ملوك تلمسان قد لحق دولتهم الهرم الذي يلحق
جميع الدول قبيل اضمحلال حالها وظهر عجزهم وضعفهم غير أنه
كان مع دولتهم بعض التماسك في الجملة ولكنها لا تقدر على
معارضة الدولة الإسبنيولية وقتئذ ولا على مدافعتها لأنها
قد قويت شوكتها وظهرت صولتها كل الظهور وذلك بصدر
المائة العاشرة عندما تمّ لها تملّك الأندلس فإن سطوتها
كانت بلغت النهاية وتعاظم تكالبها على ثغور المغرب الأقصى
والمغرب الأوسط وقد استولت على بجاية سنة تسعمائة
وعشر ثم على وهران سنة ٩١٤ تسعمائة وأربعة عشر ودمّرت
أهلها كل تدمير وفعلت الأفاعيل المنكرة حسب عادتها
ثم طمحت نفسها إلى تملّك الجزائر وضايقت المسلمين في جميع تلك
الثغور وقد عجزت ملوك بني زيان عن مدافعتها لفتور قوتها
وشيخوخة دولتها وهرم سنّها وكانت دولة بني عثمان في غاية
الاستقامة والقوة التامّة وقتئذ ونهاية العلوّ والظهور والارتفاع
التامّ والنصر العامّ وقد عظم أمرها وشاعت سطوتها وكملت
قوتها وملكت أكثر البلاد المعمورة بالإسلام وبلغ ملكها ما لم يبلغه
ملك غيرها وظهر من قوادها وعساكرها من القوة والشجاعة
والفتك ما هو مسطر في التواريخ وفي الأذهان باقٍ مستمر
وقد كان الرئيسان المذكوران وهما خير الدين باشا بربروس
وأخوه قد أظهرا شجاعة عظيمة ووقعا لأجل نصرة الدين المحمدي
جسيمة

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التَّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخطّ المؤلف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني .

والصين والماء امريكا لم يطلعوا عليها لكونها ما ظهرت الا في القرن
العاشر كما قدمناه وكل اقليم من تلك الاقاليم السبعة سبعمائة
فرسخ في مثلها بأربعمائة وتسعين الف فرسخ من غير ان ٤٩٠٠٠٠
يحسب من ذلك جبل ولا وادٍ والبحر الاعظم محيط بها كلها
ومحيط به جبل قاف فالشام ومصر والمغرب قسم واحد
والحجاز واليمن والحبشة قسم اخر رجوع الى ما كنا بصدده
ثم ان الدولة العثمانية لما استغاث بها اهل الاندلس
كما قدمناه تأنّت كل التأني لبعد المسافة وعدم استقامة
داخليتها وقتئذ ثم بعد التربص الكلي بعثت لهم نجدة فكان من امر
تلك النجدة انها لما توسطت البحر بلغها ان الدولة الاسبنولية
تمكنت من ذلك الاقليم كل التمكن وان جيوشها استولت على جميع
المعاقل والحصون والاستحكامات فرجعت لتيقنها ان امر
ذلك الاقليم صار يحتاج الى فتح جديد وحروب كثيرة وازمنة
طويلة غير ان بعض الاساطيل من تلك النجدة جعل
يتردد ويجول في البحر تحت جملة من الامراء فارست فرقة من تلك
الاساطيل التي كانت تحت خير الدين باشا واخيه عروج بربروس
باشا بأراضي بجاية من اقليم الجزائر للسؤال عن حال الاندلس
وذلك سنة خمس واربعين وتسعمائة فتوجهت قلوب
الاهالي اليهما والتفتت نحوهما وكان ذلك سببا لاستيلاء
الدولة التركية على الاقليم الاوسط ذكر استيلاء
الدولة العثمانية على الجزائر وجميع اقليمها
ثم ان خير الدين باشا واخاه المذكور جعلا يجولان في البحر
في تلك المدة ويتابعان الغزو على الافرنج وقد شاع امرهما

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التَّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام"، وهذه النسخة بخطِّ المؤلِّف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني.

ويقال أن بعض من استملكها احتال على أهلها عند دخوله لمرساها بأنه جاء زائراً، وبعضُ من يسمع بها من المشارقة يظن أنها جزيرة من الجزر البحرية، سميت بالجمع، أو أنها عبارة عن جملة جُزر متقاربة في حكم الجزيرة الواحدة ، وأن البحر محيط بها من جميع جهاتها الأربع، وليس كذلك ، بل إنما هي بلدة عظيمة ينسب إليها المغرب الأوسط متصلة بالإقليم الإفريقي على ضفة البحر الأبيض الذي فتحه ذو القرنين ، وأجراه من البحر المحيط من جهة طنجة ، لكي يفصل به بين البلاد الأوروبية وبين بلاد المسلمين ، وهذه البلدة ما تمدنت كل التمدن إلا بعد استيلاء الدولة الأسبنيولية على إقليم الأندلس بجمعيه ، فانتقل إليها من هاجر من أصحاب ذلك الإقليم واستوطنوها ، وبسكناهم بها كمل تمدنها، وتم حسنها ، وبدا جِمالها وبهاؤها .

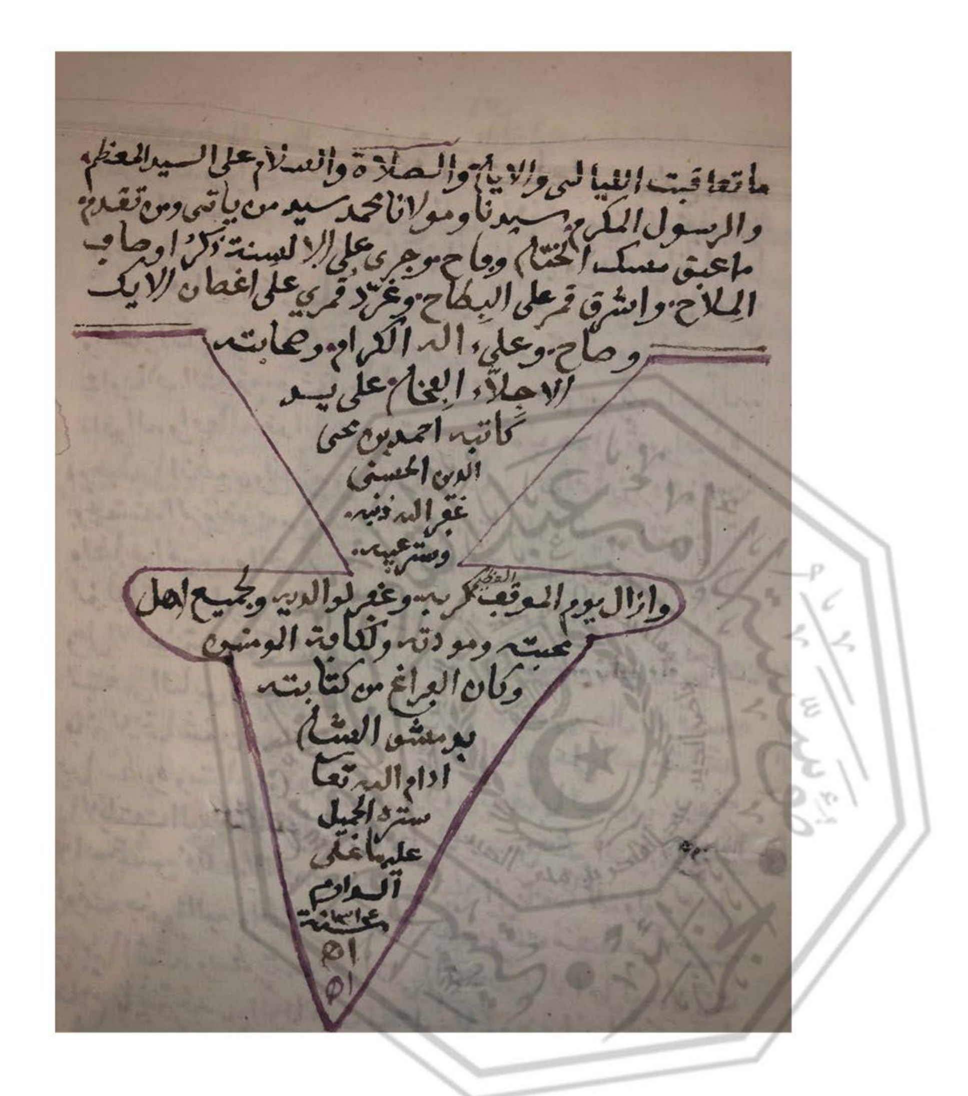
ذكر طرَف من أحوال ذلك الإقليم وكيفية استيلاء الدولة الإسبنيولية عليه، والفتن التي وقعت فيه على سبيل الإجمال، إذ مالا يدرك كله لا يترك كله، وذكر ما وقع بأصحاب ذلك الإقليم على التفصيل، يُكدِّر البال، ويُهَيج الغضبَ، ويُثير نار [البلابل].

وأقول: إن أول بلاء أصيب به أهل ذلك الإقليم هو تفرق كلمتهم ، وخروجهم عن طاعة خالقهم ، وبسبب ذلك أمطر الحق تعالى عليهم شدائد المصائب والنكال والمحن والهلاك والوبال، حتى استولت على جميع أراضيهم وبلادهم تلك الدولة، وملكتها وشتت شمل جمعيتهم وبدّدتها، وجاست خلال بيوتهم وأماكنهم وخربتها، وقد كان في أرغد عيشٍ وهناء ، وعزٍ وبسطٍ ......

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُ به النَواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام" ، وهذه النسخة بخطِ المؤلِف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني .

في هذه الأوراق جملاً لطيفة وأخباراً مستحسنة ظريفة حلوة الجنا والمذاق لائقة للمسامرة عند التلاق، واجتماع الرفاق .
وسميتها" نخبة ما تسر به النواظر وأبهج ما يسطر في الدفاتر" في بيان سبب تولية ذي الكمال الباهر، والمجد المؤثل الظاهر، والفضل والنسب الطاهر، حضرة أخي الأمير السيد عبد القادر بن محي الدين الحسني الإمارة على إقليم الجزائر، وكيفية بيعته، وفي سبب تسليمه الإقليم، وخروجه من يده مما ثبت لدي من الأخبار الصحيحة التي حصّلتها، والحوادث التي شاهدتها وأبصرتها، ذاكراً قبيل الشروع بالمقصود؛ ما أبدته القدرة الإلهية من تقلبات الأحوال على الأمكنة والأزمنة، ومجّول الرجال وتصرفات الدهر المحدود، وتجليات مالك الملك المعبود، ليتذكر بذلك من يتذكره ويتبصر بها من يتبصره ويعتبر بما يرى ويسمع من تقلبات الشئون الإلهية من يعتبر ويدقق الفكر في الأمور الكونية والأحوال ويتدبر ويمعن النظر فيها ويتفكر بأن في تقلبات تلك الأحوال لعبرةً عظيمةً وأي عبرة تمن كان من ذوي العقول الكاملة والخبرة.
فأقول: إن مدينة الجزائر كانت في القديم قريةً مخشوشنة تسكنها قبائل البربر الذين هم أصحاب ذلك الإقليم ، تسمى بقرية بني مَزْغَنَّة ، لا تَمدُّن بها ، ولا لطافة بساكنيها ، ثم جعلت تنتقل إلى التمدن شيئاً فشيئاً ، ونُحتَ لها هذا الاسم الذي هو موضوع لها الآن، وجُعِل علماً عليها من قولهم: جاء زائراً ، ولا يُعلم لهذه التسمية سبب على التحقيق .

نماذج من مخطوط: نخبة ما تُسَرُّ به النَّواظر "الكتاب التّامّ" ومنه انتزع الشيخ القاسميّ ما يتّصل بترجمة الأمير عبد القادر، وألحقه في موضعه من كتابه الموسوعيّ "تعطير المشام" ، وهذه النسخة بخطِّ المؤلِّف الإمام أحمد بن محيي الدين الحسني .


ما تعاقبت الليالي والأيام والصلاة والسلام على السيد المعظم
والرسول المكرم سيدنا ومولانا محمد سيد من يأتي ومن تقدم
ما عبق مسك الختام وماج موج جرى على الالسنة ذكر او صاح
الملاح واشرق قمر على البطاح وغرد قمري على اغصان الايك
وصاح وعلى آله الكرام وصحابته
الاجلاء الفخام على يد
كاتبه احمد بن محي
الدين الحسني
غفر الله ذنبه
وستر عيبه
وازال يوم الموقف كربه وغفر لوالديه ولجميع اهل
محبته ومودته ولكافة المؤمنين
وكان الفراغ من كتابته
بدمشق الشام
ادام الله تعالى
ستره الجميل
علينا وعلى
الدوام

خاتمة المخطوط التام للعلامة الشيخ أحمد بن محيي الدين
((نخبة ما تسر به النواظر))
ويظهر فيها تاريخ الفراغ من كتابته عام 1314 هـ
الموافق لـ 1896 م



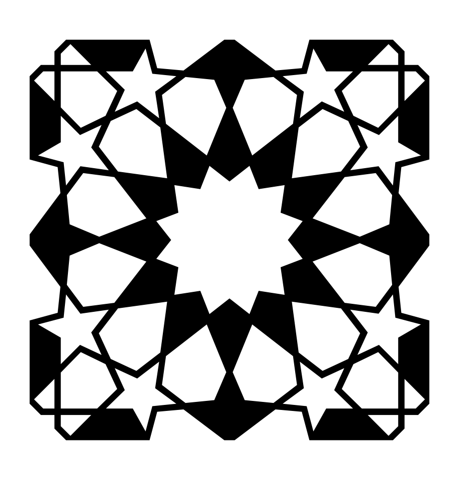
دار الأمير في أشرفية صحنايا - ريف دمشق

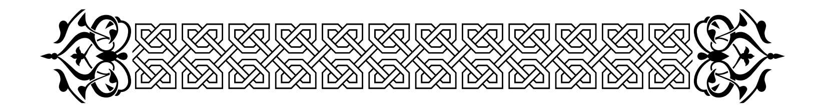


ناقل تذكرة الاسلحة من عساكر المغاربة المهاجرين في ٢٧ ٧٦

عبد القادر بن محيي الدين

بطاقة حمل سلاح جرى تداولها أيام فتنة 1860 م
بختم الأمير عبد القادر الجزائري





الفهرس

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

